عبد الله علي العليان

الاستشراق

بين الإنصاف والإجحاف

الكتاب

الاستشراق بين الإنصاف والإجحاف

تأليف

عبد الله علي العليان

الطبعة

الأولى، 2003

عدد الصفحات: 144

القياس: 14.5 × 21.5

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 2303339 ـ 2307651

فاكس: 2305726 ـ 2 212+

Email: markaz@wanadoo.net.ma

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 750507 ـ 352826

فاكس: 343701 ـ 1 961+

توطئة

الحديث عن الاستشراق بصفة عامة، لا يخلو من محاذير كثيرة ومتشعبة في كل جوانبه.

وعندما اخترت هذه الدراسة ـ الاستشراق بين الانصاف والاجحاف ـ كنت متهيباً من هذا الاختيار لأسباب عديدة، منها ان الاستشراق تعرض لكثير من النقد والسهام، من الكثير من الكتاب والباحثين الذين لهم مكانتهم العلمية، وسمعتهم الأكاديمية العالمية.

ومن هؤلاء ادوارد سعيد في كتابه المعروف (الاستشراق. المعرفة. السلطة. الانشاء) الذي هز سمعة هذه المعرفة الاستشراقية تاريخاً، وشخصيات، وأحداثاً وفنَّد بالأسلوب العلمي الكثير من الأغراض والأهداف السلبية لنشاطه ومنهجيته.

لكننا نرى من خلال بحثنا المتخصص في دور المستشرقين في كشف التاريخ العربي، أن هذه القضية لها طرحها المختلف، ونظرتها الخاصة كنظرة تقويمية شاملة لكل أدوار الاستشراق الفكري والأيديولوجي والمعرفي، قد لا تلتقي اجمالاً بطرحنا في هذا الجانب.

ومن الحق أن نذكر أن التعميم والمبالغة في نقد كل أعمال المستشرقين وربطهم بالاستعمار والتنصير والتبشير، لا يستقيمان مع العدل والموضوعية... ناهيك عن المنهجية والعلمية في الطرح والمناقشة، وتفنيد الرأي المختلف استرشاداً بقوله تعالى (لا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى).

ومن هنا علينا أن نفرق بين الاستشراق الأيديولوجي غير المنصف، والاستشراق العلمي الذي قدم الكثير من الأعمال الجليلة لتراثنا وتاريخنا وروائع حضارتنا، وهي جهود لا تزال موثَّقة ومكتوبة وشاهدة على الإخلاص والتفاني والموضوعية.

في هذا البحث ناقشنا جهود المستشرقين في بابين:

الباب الأول (تمهيد) بثلاثة فصول.

الفصل الأول: مفهوم الاستشراق.

الفصل الثاني: النشأة والتطور.

الفصل الثالث: الدوافع والأهداف.

الباب الثاني: جهود المستشرقين في كشف التاريخ العربي

الفصل الأول: دراسة المخطوطات.

الفصل الثاني: الدراسات الأدبية والتاريخية والعلمية.

الفصل الثالث: الآثار.

مع توطئة وخاتمة للبحث.

الباب الأول

تمهيد



الفصل الأول

مفهوم الاستشراق

كلمة الاستشراق مشتقة من الشرق، وهي تعني مشرق الشمس وترمز إلى مجال الاهتمام بهذا الحيز المكاني من الكون وهو الشرق بما يحويه من علوم ومعارف وسمات حضارية وثقافية متنوعة، ويكون المستشرق هو الإنسان الذي وهب نفسه للاهتمام بما يدور في الشرق من مجالات مختلفة، وفي المقابل أيضاً نجد كلمتي مستغرب واستغراب تدلان على الميل نحو الغرب اعجاباً أو تقليداً أو دراسة[1]

أما إذا أضيف إليها الألف، والسين، والتاء تعني طلب الشرق، فإن معناها، طلب علوم الشرق وآدابه وأديانه بصورة شاملة، هذا بالنسبة للغة العربية، لكن البعض من الباحثين في مجال الاستشراق يرون أن معناها في اللغات الأوروبية يختلف اختلافاً بيّناً عن التعريف السابق ـ عند بعض الغربيين، فالمقصود «بالشرق» ليس الشرق الجغرافي، وإنما الشرق المقترن معنى الشروق والضياء والنور

---

(1) ظاهرة انتشار الإسلام وموقف بعض المستشرقين منها ـ محمد فتح الله الزيادي ـ المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان ـ طرابلس، ليبيا ـ ط1 1983م ـ ص55.

والهداية. وهذا ما تناوله سيد محمد الشاهد في تعريفه للإستشراق مستعيناً بالمعاجم الغربية، حيث يرى أن كلمة استشراق لا ترتبط فقط بالمشرق الجغرافي، وإنما تعني أن الشرق هو مشرق الشمس، ولهذا دلالة معنوية بمعنى الشروق والضياء والنور والهداية بعكس الغروب بمعنى الأفول والانتهاء. وقد رجع أحد الباحثين المسلمين وهو السيد محمد الشاهد إلى المعاجم اللغوية الأوروبية (الألمانية والفرنسية والإنجليزية) ليبحث في كلمة شرق، فوجد أنه يشار إلى منطقة الشرق المقصودة بالدراسات الشرقية بكلمة «تتميز بطابع Orient وتعني بلاد الصباح، ومعروف أن الصباح تشرق فيه الشمس، وتدل Morgenland معنوي وهو هذه الكلمة على تحول من المدلول الجغرافي الفلكي إلى التركيز على معنى الصباح الذي يتضمن وتعني بلاد المساء لتدل Abendland معنى النور واليقظة».[2]

أما في قاموس اكسفورد فيحدد المستشرق Orientalist بأنه من تبحّر في لغات الشرق وآدابه وعلومه.

أما المستشرق الألماني «بارت» فيرى أن كلمة الاستشراق ذات دلالتين: «الاستشراق علم يختص بفقه اللغة خاصة، ولا بد لنا إذن أن نفكر في المعنى الذي أطلق عليه كلمة استشراق المشتقة من كلمة «شرق»، وكلمة شرق تعني مشرق الشمس، وعلى هذا يكون الاستشراق هو علم الشرق أو علم العالم الشرقي، والأمر إلى هذا

---

(2) الاستشراق ـ د/ مازن بن صلاح المطبقاني ـ مركز المدينة المنورة لدراسات وبحوث الاستشراق ـ موقع المركز بالانترنت:
www.medinacenter.org

الحد واضح. ولكن ما معنى كلمة شرق في هذا المقام بالذات؟ الظاهر أن اسم الشرق تعرض لتغيير في معناه، فالشرق بالقياس إلينا نحن الألمان، يعني العالم السلافي، العالم الواقع خلف الستار الحديدي، كما كان يسمى كذلك في الماضي، وهذه المنطقة يختص بها علماء بحوث شرق أوروبا»[3].

وهناك أيضاً اختلاف حول تحديد مفهوم الشرق، وهل تعني العرب والعالم الإسلامي، أم الأمم والحضارات الشرقية بصفة عامة، لكن البعض من الباحثين يرى أن مصطلح (الاستشراق) [Orientaisme] يعني: «دراسة الشرق من جميع النواحي». وكان مفهوم (الشرق)، في أذهان الأوروبيين، ينصرف غالباً إلى الشرق العربي الذي كان يشمل فيما يشمل الشرق الإسلامي كذلك لأنه ينضوي تحت اسم الحضارة العربية الإسلامية ويحمل طوابعها وخصائصها عموماً.

غير أن مصطلح الاستشراق هذا أصبح فضفاضاً نوعاً ما بعد دخول أوروبا في العصر الحديث، إثر الكشوف الجغرافية والثورة الصناعية، إذ استولى الأوروبيون مدفوعين بالنزعة الاستعمارية (Colonialisme)، على بلدان وراء البلدان العربية والإسلامية، في كل من أفريقيا وآسيا، وأدخلوا دراسات اللغات وحضارات كثيرة (شملت الهند والصين واليابان وأندونيسيا الخ)، وتوسع مفهوم الاستشراق بالتالي ليشمل لغات هذه البلدان وحضاراتها، مما دعا

---

(3) المستشرقون وتوجيه السياسة التعليمية في العالم العربي ـ نايف بن ثنيان بن محمد آل سعود ـ الناشر دار أمية للنشر والتوزيع ـ ط1، 1414هـ ـ ص17.

إلى نشأة مصطلح أضيق وأدق ضمن حركة الاستشراق الكبرى، وهو مصطلح (الاستعراب) (Arabisation) أي من يهتم بدراسة اللسان العربي وحضارة العرب. ويطلق على جملة الدراسات التي يقوم بها جمهور الباحثين من المستعربين اسم (الدراسات العربية).[4]

غير أن المستشرق المعاصر المثير للجدل «برنارد لويس» له رؤية مختلفة في تحديد مفهوم الاستشراق حيث يرى أن «كلمة الاستشراق تستعمل في مفهومين فقط، الأول أن الاستشراق مدرسة من مدارس الرسم، أي أن مجموعة من الفنانين، ومعظمهم من أوروبا الغربية، زاروا الشرق الأوسط وشمال أفريقيا ورسموا ما رأوه وما تخيلوه وذلك بطريقة رومانسية. المفهوم الثاني وهو المفهوم الشائع أكثر، ولا علاقة له بالمفهوم الأول، بل هو فرع من الفروع الأكاديمية التي بدأت مع عصر النهضة، فالمدرسة الهللينية تدرس الحضارة الإغريقية والمدرسة اللاتينية تدرس الحضارة الرومانية، والمدرسة العبرية تدرس التاريخ واللغة العبرية.

تسمى المدرسة الهللينية واللاتينية بالدراسات الكلاسيكية، وتسمى العبرية بالدراسات الاستشراقية. وفيما بعد، بدأ الالتفات إلى لغات أخرى».[5]

---

(4) تاريخ الدراسات العربية في فرنسا ـ د/ محمود المقداد ـ كتاب عالم المعرفة ـ العدد 167 ـ سلسلة يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ الكويت ـ نوفمبر 1992م.

(5) كتاب الإسلام والغرب ـ تأليف برنارد لويس ـ ترجمه قسم التأليف والترجمة بدار الرشيد ـ دمشق، بيروت ـ ط1 1994م ـ ص41، (تعليق) هاجم برنارد لويس في هذا الكتاب ادوارد سعيد وأنور عبدالملك على انتقادهما الاستشراق في بعض =

وعلى الرغم من التباين في تحديد مفهوم الاستشراق بصورة ثابتة، إلا أن المدلول الشامل لهذا المفهوم. وهو دراسة الشرق ومعرفته وفهمه هو الجامع المشترك في كل الآراء التي ناقشت الاستشراق وتتبعت معطياته ومجالاته.

ويقترب من هذا المفهوم، تعريف عدنان محمد وازن في كتابه [الاستشراق والمستشرقون. . وجهة نظر] حيث يرى أن الاستشراق «مصطلح أو مفهوم عام يطلق عادة على اتجاه فكري يعنى بدراسة الحياة الحضارية للأمم الشرقية بصفة عامة، ودراسة حضارة الإسلام والعرب بصفة خاصة» فلم يحدد «وازن» المنطقة التي تنبع منها هذه الدراسات، ولا المكان الذي يخرج منه هؤلاء الدارسون.

وليس المقصود من إغفال الجهة أو المكان إدخال العرب غير المسلمين فحسب، بل إدخال الشرقيين غير المسلمين بشكل عام. حيث إن المعرفة اليوم انتشرت شرقاً وغرباً ولم يعد الاهتمام بالمسلمين وعلومهم مقصوراً على علماء الغرب وجامعاتهم ومعاهدهم، بل إن الشرق «الأقصى» خطا خطوات ملحوظة، في جامعاته ومعاهده، نحو دراسة المسلمين وعلومهم وآدابهم وعاداتهم وتقاليدهم، بل وأساطيرهم.[6]

= أهدافه، وانصب هجوم لويس على ادوارد سعيد واتهمه بالجهل والإساءة الخ، وقد رد بعض المستشرقين على سعيد وجمعت هذه الردود في كتاب [الاستشراق بين دعاته ومعارضيه] صدر عن دار الساقي ـ لندن، وقد رد إدوارد سعيد أيضاً على منتقديه في كتاب [تعقيبات على الاستشراق].

(6) الاستشراق في الأدبيات العربية ـ د/ علي بن إبراهيم النملة ـ مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ـ الرياض ـ ط1 1993م ـ ص18.

وهذا ما قاله أيضاً ادوارد سعيد في كتابه الذائع الصيت [الاستشراق] من حيث شمولية مفهوم الاستشراق على الشرق عموماً ومنها الدراسات العربية والإسلامية، حيث «كان مستشرقو عصر النهضة، مثل ايربنيس وغليوم بوستل مختصين أولاً في لغات الأقاليم التوراتية، مع أن بوستل كان يتباهى بأنه يستطيع عبور آسيا وبلوغ الصين دون مترجم. وقد كان المستشرقون، بشكل عام، حتى منتصف القرن الثامن عشر باحثين في التوراة، أو دارسين للغات السامية، أو مختصين بالإسلام، أو مختصين بالصين ـ إذ إن الآباء اليسوعيين كانوا قد فتحوا أبواب الدراسة الجديدة للصين، ولم يكن مدى آسيا المركزي الفسيح قد فتح، جامعياً، أمام الاستشراق إلى أن استطاع أنكتيل ـ دوبّرون وسير وليم جونز، في الجزء الأخير من القرن الثامن عشر، أن يجلوا للفهم الثراء العجيب للافيسية والسنسكريتية. ومع منتصف القرن التاسع عشر. كان الاستشراق قد أصبح مكتنزاً علمياً من الاتساع بقدر ما يستطيع المرء أن يتخيل». (7)

«وعندما توسعت الدراسات في هذا الجانب وتشعبت مجالاتها واقترب العالم أكثر من بعضه البعض نشأت كراسي بالجامعات الغربية كمراكز بحثية معينة بتخصصات متعلقة بعلم واحد أو أكثر من

---

(7) الاستشراق. . المعرفة. . السلطة. . الإنشاء ـ صدر عن مؤسسة الأبحاث العربية ش.م.م ـ ط3، 1991م ـ ص81 ـ نقله إلى العربية كمال أبو ديب، ومع أهمية هذا الكتاب ودوره في كشف الكثير من الآراء المتعلقة بأهداف الاستشراق وحركته، إلا أن الترجمة لم تكن واضحة المعاني بشكل كاف بسبب تركيز المترجم على المصطلحات البحثية المتداولة في الأوساط الأكاديمية في الولايات المتحدة وأوروبا في ترجمة هذا الكتاب القيم، وقد اعترف إدوارد سعيد بهذا مؤخراً من حيث صعوبة الترجمة.

علوم الشرق، ومنها العلوم العربية والإسلامية، وصار الأساتذة يسمون أنفسهم فقهاء لغة، مؤرخين، وعلماء تاريخ. يتعاملون مع موضوعات الاستشراق. كذلك بدأت مصطلحات جديدة تظهر وتبرز في أكثر الجامعات الغربية بدل مصطلح الاستشراق مثل اختصاصي بالشؤون الصينية، أو الهندية أو الإيرانية، أو العربية، وبالتالي تصبح الكلمة أكثر تعبيراً وتحديداً للمنطقة التي يدرسها الباحث ولموضوع الدراسة. وبالنسبة لاصطلاح الدراسات العربية (Arabist) أي المستعرب، فقد خضع لعملية إعادة تعريف لدلالة هذه الكلمة»[8].

وإذا صح هذا التعليل في توصيف هذا المصطلح بالنسبة للدراسات العربية «فإن كلمة مستعرب أجدر بأن يوصف بها هؤلاء الذين تخصصوا في دراسة حضارة العرب والمسلمين، ويكون لفظ المستشرق قد تعيّن لكل من درس الشرق عموماً سواءً درس الإسلام أو غيره من الديانات الأخرى، وسواءً درس العرب أو غيرهم من الأمم الأخرى. والحقيقة أنه رغم ما عرف به الباحثون المستشرقون فإن في نظري تبقى كلمة المستشرق تدل دلالتين: أكاديمية، وهي ما تناولها الباحثون الذين أشرت إليهم. وعامة وهي كل من تعرض لحضارة العرب والمسلمين بالدراسة الخاصة»[9].

وقد يكون هذا التعريف الجديد مناسباً لهذه المرحلة الجديدة من الاهتمامات التي تطرح بصفتها أكثر دقة للاستشراق المعاصر وخاصة في المجال الأكاديمي وغيرها من الدراسات المتخصصة.

---

(8) الإسلام والغرب ـ برنارد لويس ـ مرجع سابق ـ ص43.
(9) ظاهرة الإسلام وموقف المستشرقين منها ـ مرجع سابق ـ ص61، 62.

غير أنه من الدقة العلمية التفريق بين «الاستشراق والاستعراب» والذي يبدو ـ هنا ـ أن الاستعراب ينصب على الاهتمام بالعرب. ولا يمكن الاهتمام بغير العرب بعد البعثة المحمدية دون الاهتمام بالدين الذي نقله العرب إلى بقية العالم. وإذا كان هناك إصرار على الاستعراب فيمكن أن ينصب على الاهتمام بحياتهم وحضارتهم وثقافتهم وآدابهم وتقاليدهم وعاداتهم وأساطيرهم ومعتقداتهم قبل الإسلام. وهذا يعني أن للعرب حضارة وثقافة وآداباً وتقاليد وعادات وأساطير ومعتقدات، بخلاف من يقول إنه لم يكن للعرب حضارة وأنهم «لم يكونوا أمة ولا شيئاً مذكوراً إلا بالإسلام». وأود أن أصل ـ هنا ـ إلى «أنه متى ما دخل المستعرب في دراسة العرب أثناء بعثة محمد (ص) وبعدها، فإنه يدخل في مصطلح الاستشراق، ويخرج من مصطلح الاستعراب. وقد يكون العالم الواحد مستعرباً ومستشرقاً في آن واحد. وعليه فإن الاستعراب ليس فرعاً من فروع الاستشراق. وهناك إمكان واحد نستطيع فيه أن نقول إن العالم الباحث في حضارة العرب قبل الإسلام يمكن أن يطلق عليه مستشرق، وذلك إذ جعل من دراساته في حضارة العرب قبل الإسلام قاعدة ينطلق منها الحكم على جزئية مهما صغرت من الإسلام».[10]

ومصطلح الاستعراب الجديد يظل مفهوماً حديثاً إذا ما قورن بالاستشراق وشموليته في دراسة الشرق، بحيث لا تتنافر كمصطلحات وتتقارب كمناهج واهتمامات. لكن مصطلح الاستشراق في اعتقادنا يعد أقوى دلالة وأشمل تعريفاً من مصطلح الاستعراب.

---

(10) الاستشراق في الأدبيات العربية ـ مرجع سابق ـ ص31.

الفصل الثاني

النشأة والتطور

لا يوجد تحديد قاطع ودقيق لنشأة الاستشراق أو البداية الحقيقية المنظمة لنشاطه. حيث تختلف الآراء وتتقاطع في هذا التحديد، فيرى البعض أن البداية في ظهور الدراسات الاستشراقية بدأت بعدما فتح المسلمون إسبانيا، وجنوب ايطاليا، وصقلية «وقيام الدولة الإسلامية في الأندلس، التي أسست نهضة وحضارة إسلامية لم تشهدها أوروبا من قبل؛ وحينذاك أخذ الأوروبيون الغارقون في الجهل والتخلف الحضاري يبحثون عن أسباب نهضة المسلمين، وبلوغهم هذا المجد العظيم وتعتبر هذه الفترة مرحلة الانبهار بالحضارة العربية الإسلامية ـ فبدأوا يدرسون علوم المسلمين ولغاتهم لعلهم يظفرون بما يوقفون به هذا التيار الجديد، أو يكتسبون من علومه ما ينفعهم في انقاذهم من تخلفهم وجهلهم. ويؤكد بعض الباحثين أن بعض الرهبان اتجهوا إلى الأندلس وغيرها من مراكز الحضارة الإسلامية في أوروبا في أيام ازدهارها، وتعلموا في مدارسها، وتثقفوا بعلوم المسلمين وثقافتهم. وتتلمذوا على علماء المسلمين في مختلف العلوم، وبخاصة في الفلسفة والطب والرياضيات.

واستطاعوا أن يترجموا بعض الكتب العربية إلى لغاتهم». [11]

ففي الفترة التي تعرف الغرب فيها على الحضارة الإسلامية في الأندلس، والمعارف المختلفة التي تعلموها من خلال البعثات العديدة، بدأ التفكير في دراسة الشرق [الإسلامي] والتعرف عن قرب على ثقافته، ومعارفه، وأحواله المختلفة، ومن هنا ظهرت في أوروبا الرغبة في الاطلاع على حضارة العرب والمسلمين، وما خلفته من مآثر حضارية وعلمية، عندما فتح العرب إسبانيا وصقلية، وقد كان دخول العرب اسبانيا فتحاً جديداً لهم في مجال العلوم والفنون والحضارة والمدنية، وقد بعث هذا الفتح ـ كما قال المستشرق الفرنسي «ماسينون» «يقظة حضارية في أوروبا واتاح للغرب آفاقاً جديدة للتقدم والرقي، لم يكن لهم معرفة سابقة به من قبل، وقد كانت الرغبة الجامحة في المعرفة من علوم العرب وتفهم حقيقة دينهم باعثاً لدراسة الإسلام وحضارته».

ومن ظواهر هذا الاهتمام بهذه المرحلة «الاتجاه إلى ترجمة الكثير من أمهات الكتب العربية إلى اللاتينية، ونتيجة للرغبة الشديدة في ترجمة الكتب العربية أنشأ (دون رايموند الأول) رئيس أساقفة طليطلة مكتب المترجمين سنة 1130م، حيث تم بواسطته نقل أمهات كتب الرياضيات والفلك والطب والكيمياء والطبيعة والتاريخ الطبيعي وما وراء الطبيعة وعلم النفس والمنطق والسياسة، وفي هذه المرحلة أيضاً تمت أول ترجمة للقرآن الكريم وكانت في سنة 1143م على يد راهب انجليزي يدعى (هرمان)، ولكن هذه الترجمة لم تظهر إلى

(11) ظاهرة انتشار الإسلام وموقف المستشرقين منها ـ ص63، 64.

حيز الوجود نظراً لخوف الكنيسة من تأثيرها في الرأي العام المسيحي بما تعطيه من مفاهيم إسلامية ربما تساعد في انتشار الإسلام بين المسيحيين، ولذلك ظلت هذه الترجمة حبيسة دير (كلوني Cluny) بجنوب فرنسا، ولم تظهر إلا في سنة 1543م»[12]

لكن بعض الباحثين والمهتمين بالإستشراق يرون أن البداية الحقيقية لعمل المستشرقين لم يكن مع النهضة العربية في الأندلس، على الرغم من تأثيرها ووقعها الحضاري والفكري والسياسي على أوروبا، ومن هؤلاء إدوارد سعيد الذي يرى أن «الاستشراق، بتحديد دقيق، ميدان من ميادين الدراسة المتفقهة. وفي الغرب المسيحي يؤرخ لبدء وجود الاستشراق الرسمي بصدور قرار مجمع فيينا الكنسي عام 1312م بتأسيس عدد من كراسي الأستاذية في «العربية، واليونانية، والعبرية، والسريانية في جامعات باريس، واكسفورد، وبولونيا، وافينيون، وسلامانكا» غير أن أي مسرد للإستشراق ينبغي أن يأخذ بعين الاعتبار لا المستشرق المحترف وعمله فحسب، بل كذلك المفهوم ذاته لوجود ميدان من ميادين الدراسة قائم على وحدة جغرافية، وثقافية، ولغوية، وعرقية اسمها الشرق»[13]

هذا من ناحية التأسيس في الجامعات الأوروبية ـ كما يقول بها الغربيون ـ لهذه النوعية من العلوم ـ إذا جازت التسمية ـ لكن الاهتمام بالشرق ومعارفه سبقت هذه الفترة بعدة قرون وبكتابات ذات أبعاد معرفية جديرة بالاهتمام، لكن الانعطاف الأكبر والمنظم بدأ بعد الحروب الصليبية التي يعد الاستشراق نتيجة من نتائجها. فبعد انهزام

(12) المرجع السابق ـ ص65.

(13) الاستشراق. المعرفة. . السلطة. . الإنشاء ـ مرجع سابق ـ ص80.

الصليبيين عسكرياً وفشلوا في منطلقات الغزو والقوة لقهر المسلمين والسيطرة عليهم والاحتفاظ بالأراضي المقدسة التي احتلوها، فإن الغرب بدأ يعيد النظرة في استراتيجيته بصورة مختلفة للشرق (الإسلامي) على وجه الخصوص. لعله يستعيد ما خسره في هذه الحروب الصليبية، أثناء وبعد الحملات الصليبية، فاتجهت رحلات الحجاج والرحالة والتجار في طرق وأساليب مختلفة، حيث جمعوا معلومات متفاوتة في معارفها عن العالم العربي، في الجوانب السياسية والاقتصادية والدينية.

وقد بدأت الدراسات في هذه الفترة تأخذ طابعاً منظماً ومركزاً لدراسة الدين الإسلامي واللغة العربية والفكر والتاريخ الخ.

كان اهتمامهم الأكبر «وهم يؤسسون لكل عمل استشراقي تعليم اللغة العربية، فهي اللغة التي يتكلمها العرب والمسلمون، فضلاً عن أنها اللغة العلمية للمؤلفين المسلمين في كل مكان من العالم الإسلامي، حيث يكثر استعمالها في البلاد الإسلامية»، قال أحد المستشرقين الهولنديين «إن كل من يعرف هذه اللغة يستطيع أن يجوب كل آسيا وأفريقيا، ذلك أن جميع أهالي المغرب ومصر وجزيرة العرب وسوريا يستعملون هذه اللغة دون سواها، على أن هذه هي الأكثر شيوعاً في تركيا وبلاد فارس والهند وغيرها من أرجاء آسيا الأخرى، حيث يتمسك الناس بالإسلام، حتى وإن وجدت لغات أخرى تستخدم في هذه البلاد».[14]

---

(14) الاستشراق ـ الذرائع ـ النشأة ـ المحتوى، د/ السيد احمد فرج ـ دار طويق ـ الرياض، ط1، 1994م ـ ص55.

وليس هناك من شك أن الاستشراق بدأ انطلاقته في حضن مؤسسات غربية فاعلة بدعم وإسناد من الدول الغربية لأهداف سياسية واقتصادية وتبشيرية واستعمارية في أغلب فتراته تقريباً فقد «كان منهم الرحالة والمبشرون والضباط، ورجال الإدارة الاستعمارية واللغويون واللاهوتيون والأنثروبولوجيون ومؤرخو الحضارات والرحالة الرومانسيون والأركيولوجيون، وأضيف إليهم منذ مطلع هذا القرن: التربويون، ورجال المخابرات، والمؤرخون الاقتصاديون ومدربو الشركات وخبراء الأسواق التجارية، والسياسيون وذوو النوايا الطيبة من المهتمين بجوار الشرق والغرب وعلاقات المسيحية بالإسلام، وطبيعي ـ ما دامت زوايا الاهتمام ودوافعه متباينة فلا بد أن تتباين نتائج الدراسات، ووجوه استغلالها.»[15]

هذا الاندفاع الكبير بدأه الغرب للشرق وبالأخص العالم العربي والإسلامي، حصل بزخم غير عادي، فالطبعة الأولى للإستشراق المنظم كانت بعد فتح الأندلس، وفترة الحروب الصليبية وبعدها التي ناقشناها آنفاً، وارتبطت الطبعة الثانية للإستشراق بعد التحولات الجديدة وبعد الاكتشافات الجغرافية وصعود أوروبا اقتصادياً في نهاية القرن الخامس عشر، وبداية القرن السادس عشر. من هنا بدأ الغرب في التخطيط للسيطرة على العالم العربي والإسلامي. ففي "خضم الصراع المتجدد اكتشفت أوروبا في مطلع القرن السادس عشر أنها بحاجة إلى تجديد معرفتها بالعالم الإسلامي والشعوب الإسلامية

---

(15) الاستشراق.. هل انتهى فعلاً ـ د/ رضوان السيد ـ الخليج الثقافي ـ جريدة الخليج، الشارقة، العدد (7568)، 7 فبراير 2000م.

والدين الإسلامي، فنشطت في هذه المرحلة بعثات الحجاج إلى الأراضي المقدسة للتزود بالمعلومات، وبدأ يتزايد اهتمام السلطات المحلية بدور الرحالة من أوروبا إلى الشرق، كذلك تجددت أهمية القوافل التجارية في كشف معالم الطرقات ومجاهل المنطقة.

في هذه المرحلة ظهر ما يسمى بالحاج المستشرق والرحالة المستشرق والتاجر المستشرق. من هؤلاء تم التزود بالمعلومات وإشباع الحاجة المعرفية. وشكلت مواد الفئات المذكورة قوة الدفع الأساسية في الطبعة الثانية من التفكير، وهي مهدت لاحقاً لنشوء ظاهرة التبشير المسيحي (المبشر المستشرق) وصولاً إلى قادة الجيوش (الضابط المستشرق).

كل هؤلاء ساهموا تباعاً وعلى امتداد فترة زمنية امتدت من القرن الخامس عشر إلى القرن الثامن عشر (عصر انفجار الثورة الصناعية) في تلوين الصورة عن الآخر المختلف»[16].

انطلقت الحركة الاستشراقية في هذه الفترة ـ فترة الاكتشافات الجغرافية ـ والسباق بين الدول الأوروبية على تقاسم النفوذ على آسيا وأفريقيا للسيطرة عليها، وأخذت أبعاداً أكثر فعالية مواكبة للنشاط الغربي السياسي والاقتصادي، وتشعبت إلى مدارس مختلفة ومتباينة وفقاً للتوجهات السياسية والاقتصادية والفكرية للدول العربية، وهي بلا شك مرحلة اتسمت بالإقبال الكبير على الشرق عموماً، والعالم العربي والإسلامي على وجه الخصوص. بعد هذا الانطلاق الكبير

(16) نهاية الاستشراق ـ حلقة 2 ـ وليد نويهض ـ جريدة الحياة ـ العدد (11546)، تاريخ 28 سبتمبر 1994م ـ ص18.

في الدراسات الاستشراقية «تطور الاستشراق وتعدد وتنوع إلى مدارس ونظريات إلى أن دخل في طبعته الرابعة التي بدأت في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر (1870 وصاعداً) على الطبعة الثالثة (القرن الثامن عشر) وأخذت منها الكثير من المعلومات والمواد العشوائية أو المنظمة التي تم تجميعها خلال فترة التنويع الأوروبي، وفرض النفوذ والسيطرة. فالطبعة الرابعة تأثرت بالثالثة على رغم أنها تجاوزتها. واستمرت الطبعة الرابعة من التفكير الاستشراقي إلى نهاية الحرب العالمية الثانية إذ ظهرت طبعة خامسة استمرت إلى حين صدور كتاب ادوارد سعيد في نهاية السبعينات»[17].

فالمراحل التي مرت على نشأة الاستشراق وتطوره كانت عديدة، وفترات متباينة الطرق والأساليب ضمن محطات العوامل والظروف الدينية والاقتصادية والاستعمارية لأوروبا، لكنها حلقات متصلة ومتتابعة في استهداف الشرق حباً أو كراهية أو هواية ـ كما يقول البعض ـ أو اختلاطهما معاً. وهذه قضية تحتاج إلى مبحث آخر لا يدخل ضمن مجال دراستنا هذه.

ويمكن تقسيم هذا التطور إلى أربع مراحل معرفية حسب تقسيم الباحث وليد نويهض، فالأولى فترة بعثات الحجاج المسيحيين أو تحت ستارها الديني.

والثانية كانت من الرحالة من خلال بعثات متعددة الأغراض العلمية والسياسية والتبشيرية.

الثالثة كانت من السياسيين والعسكريين لغرض التمهيد

(17) نهاية الاستشراق ـ المرجع السابق ـ ص18.

للاستعمار، والرابعة القناصل والبعثات والمندوبين وما يرافقهم من باحثين، وعلماء، وجواسيس، ومبشرين الخ.

ومن هذه المنطلقات «تحول الاستشراق إلى بنية ذهنية جاهزة بدأت تشق طريقها بعد انقضاء الحروب الصليبية في نهاية القرن الثالث، ثم تبلورت على يد بعثات الحج والرحلات إلى أن أخذ منهج الاستشراق يتطور إلى علم «مستقل» وفي الآن نفسه إلى مهمة سياسية. وتحولت «جاذبية» الشرق (الإسلام) إلى حقل تجارب ومعارف تتنافس عليه القوى الأوروبية. ومن هذا العلم الاستشراقي دخلت التصورات عن الشرق في الآداب الأوروبية وأثرت فيها وآثرتها بالمعرفة والخيال (غوته، روكارت، هيغو) وتركت مواضيعها تأثيرها على مونتسكيو، ريبمو كارل ماي، وج. جويس. واشتمل أدب الرحلات على معلومات وافية عن الحياة السياسية والقضائية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والتاريخية والجغرافية في تلك العصور والفترات». (18)

غير أن الكثير من الآراء والأفكار والدراسات التي طرحها الاستشراق عن الشرق بصفة عامة، والعرب والإسلام بصورة خاصة لم تتخلص من الآراء المسبقة ـ خاصة الجانب الأيديولوجي ـ حتى في ظل الاستشراق المعاصر والحديث الذي اتسم نوعاً ما بالموضوعية في جوانب كثيرة، فقدساير الكثير من آراء بعض المستشرقين التقليديين في أحكامهم غير المنصفة تجاه العرب والإسلام في قضايا كثيرة ـ ليس مجالنا لنناقشها باستفاضة لبعدها عن

(18) نهاية الاستشراق ـ المرجع السابق ـ ص18.

مجال بحثنا ـ لكننا من الحق أن نذكر أن «مجموعة من المستشرقين اندفعت إلى الشرق (العالم الإسلامي) نتيجة للانبهار بالحضارة والتاريخ الإسلاميين، ونتيجة للانبهار بالإسلام الذي بني على التسامح مع الآخرين، الأمر الذي لم يتحقق في إطار الدين الواحد في المسيحية وقبلها اليهودية (:) هذا النوع من الانبهار حدا بالبعض إلى الاتجاه نحو الشرق والغوص في علوم الإسلام، وانتهى المقام بالكثير من هؤلاء المنبهرين إلى أن يخرجوا من ربقة الاستشراق ويصبحوا في عداد المسلمين وإن أخفى بعضهم إيمانه لعوامل اجتماعية وعلمية»[19]

وفي القرن التاسع عشر وما بعده، أصبح الاستشراق من المؤسسات العلمية الهامة في الغرب، وقوة معرفية للحكومات الأوروبية في شؤون الشرق في كافة مناحيه من خلال المؤلفات والدوريات والبحوث المتعددة في صنوف المعارف المختلفة. و«بلغت دوريات الاستشراق ومجلاته ثلاثمائة مجلة دورية. عدا مئات المجلات غير المتخصصة التي تقدم دراسات استشراقية من وقت لآخر مثل مجلات القانون المقارن، والتاريخ، ومباحث العلوم الدينية، وتنشر بمختلف اللغات الأوروبية، وبعضها تصدر بثلاث لغات أوروبية، وتتناول مباحثها الشرق في لغاته وآدابه وعلومه وفنونه قديمها وحديثها.

بجانب ذلك كراسي اللغات العربية بكل الجامعات الأوروبية والأمريكية الكبرى، وقد أنشئت بعض الكراسي في العصور

---

(19) الاستشراق في الأدبيات العربية ـ مرجع سابق ـ ص36.

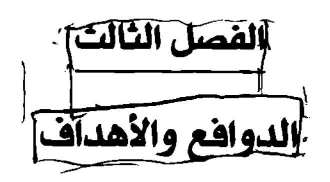
الوسطى، ثم أخذت الجامعات تتوسع فيها، وتعيّن لها الأساتذة والمناهج والشهادات» .[20]

في هذه الفترة وهي فترة ازدهار الاستشراق وتوسعه في أغلب موضوعاته عن العالم العربي والإسلامي، كان نشاط أقسام هذه الدراسات في الجامعات والمعاهد المتخصصة فاعلاً. حيث توافد الكثير من الطلاب للدراسات العليا من الغرب نفسه، ومن الوافدين من مختلف أنحاء العالم كنتيجة للاهتمام بهذا النوع من الدراسات، وهي فترة الاهتمام بالشرق من قبل الاستعمار، وفي ظله أيضاً، وهذه هي أخطر ما يوجه إلى الاستشراق من أنه ولد في أحضان الاستعمار ودوائر التبشير والتنصير.

لكن هذه المسألة يجب أن توضع في نصابها الصحيح من حيث أن البعض من المستشرقين لم يكونوا عوناً للإستعمار وأهدافه، ولم يحركهم في معرفة الشرق، وأهله، وثقافته، ودينه التبشير أو التنصير، وهذا ما سنناقشه لاحقاً في أهداف الاستشراق ودوافعه.

---

(20) الاستشراق ـ الذرائع ـ النشأة ـ المحتوى ـ مرجع سابق ـ ص67، 68.



الفصل الثالث

الدوافع والأهداف

كثيراً ما تلتقي الدوافع والأهداف في مسعى متحد. فالدوافع الحقيقية هي التي تحدد الهدف الذي يسعى إليه الساعون في مضامين شتى.

ولا شك أن المستشرقين عندما بدأوا بدراسة العالم العربي وحضارته العربية الإسلامية، وثقافته، وتاريخه، وبعض المستشرقين أفنوا أعمارهم وسخروا جهودهم في دراسة مخطوط أو تحليل مرحلة حضارية أو التنقيب عن آثار. وهذه الجهود كانت لأهداف ودوافع بغض النظر عن العامل الأساسي أو الثانوي في هذا الدافع أو ذاك.

لكنني في هذا البحث سوف أركز على الدافع العلمي المعرفي في أعمال المستشرقين وجهودهم في كشف التاريخ العربي، وهو موضوع البحث الذي أتناوله، ولن أخرج عنه التزاماً بالطرح الذي تم تحديده.

البعض من المستشرقين الغربيين الذي أقبلوا واهتموا بدراسة العلوم العربية والإسلامية كان دافعهم الأساسي هو المعرفة الخالصة للشرق، سيما التاريخ العربي الإسلامي وهو دافع علمي محض

بهدف الاطلاع على ثقافة هذه الأمة وحضارتها وتاريخها، وقد اتخذوا الاستشراق علماً قائماً بذاته، وقد عانوا ما عانوا بسببه من مشاق ومتاعب، وما سبب لهم من فقر ومرض في سبيل القيام به، وهي بلا شك مهمة شاقة وجهود مضنية خاصة دراسة حضارة عريقة كالحضارة العربية الإسلامية، ولو أنهم اختاروا مهنة أخرى لعادت عليهم بالكشف المادي والرفاهية ورغد العيش.[21]

والبعض من الباحثين يفرق في أعمال المستشرقين بين جانبين، أولاً:

مجال الإنجازات العلمية في الحقول العلمية البحتة من مخطوطات، ونشر وثائق ومعاجم وفهارس وتحقيق نصوص وغيرها من الأعمال البحثية الدارجة في هذه الحقول العلمية المتخصصة.

ثانياً: الجانب الأيديولوجي في أطروحاتهم ونهجهم البحثي عند تناولهم لقضايا العقيدة أو القرآن الكريم أو السنة النبوية ونظرتهم إلى الدين منظومة الإسلام عموماً، فهذه يمكن بسهولة تبين جوانبها السلبية والتعسفية الواضحة أو الغامضة، بالإضافة إلى «أن المستشرق ينطلق من أرضية ثقافته الخاصة بإسقاطات غير عادلة عند التناول والتقييم، ومن منطلقات الفكر الأوروبي نفسه في مراحل تفوقه إلى القرن العشرين، وهي مرحلة البرجوازية، فالإمبريالية. وهكذا يبدو أن التقييم يعتمد على الزاوية التي ينطلق منها المقيّم لأعمال الاستشراق والمستشرقين».[22]

---

(21) المرجع السابق ـ ص69.

(22) ملاحظات حول الاستشراق و دارسيه ـ د / حسام محي الدين الالوسي

وهذه الناحية الإيجابية لا يمكن نكرانها من خلال الجهود والأعمال القيّمة التي قام بها المستشرقون، حيث استخرجوها وبحثوها وتابعوها متابعة علمية منهجية قويمة، من الحق الاعتراف بها لكونها جهود تستحق الإشادة والإنصاف في هذه الناحية العلمية الرصينة، ومن هذه الأعمال كما يعددها نجيب العقيقي:

(أ) كراسي اللغات الشرقية: أنشأوا كراسي منذ العصر الوسيط، وتضاعفت بعد ذلك، ووضعت اللغات الشرقية ولا سيما العربية في مصاف اليونانية واللاتينية.

(ب) المخطوطات الشرقية: جمعوها بالأسفار الطويلة والنفقات الباهظة، ومن ثم قاموا بفهرستها ونشرها.

(ج) المتاحف الشرقية: جمعوها من رمال الصحراء ووهادها، ثم صفوها في متاحف ومطابع ومجلات، وفكوا رموز لغات قديمة، ووضعوا معاجم لها، وأنشأوا معاهد لها في بلدانهم، وفي بلدان الشرق الأوسط، وكشفوا عن مدن كاملة مطمورة. ومن المكتبات والمتاحف صنّف المستشرقون مصنفات عالمية وفيرة، منها في قراءة الخطوط، وفي علم الكتابات العربية والسامية، وفي الفنون الإسلامية، والنقود الشرقية، وتراجم وأسماء التقاويم ومطابقاتها، وفي تخطيط المدن ووضع الفهارس والجداول لهذه الوثائق، ولو أراد المستشرقون بتراثنا شراً لما استنفدوا أحجاره وأوراقه من الضياع ولما فعلوا كل ما فعلوه.

= (وآخرون) ـ كتاب إشكالية العلاقة مع الغرب ـ بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها المجمع العلمي العراقي بالتعاون مع مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت ـ ط1، مايو 1997م ـ ص73، 74.

(د) تحقيق المخطوطات: والمنهج العلمي في التحقيق، بحيث أثنى كل مصنف على تحقيقاتهم وسلامتها اللغوية، بما لا يقارن بما فعلناه حينما أعدنا ما حققوا أو حققنا الجديد.

(هـ) ترجمة تراثنا بشتى اللغات: يكفي القول إن المستشرقين ترجموا 2466 مؤلفاً إلى الفرنسية وحدها لإرساء النهضة الأوروبية عليها إلى سنة 1959 فقط، بل ترجموا بعض مخطوطاتنا شعراً كالمعلقات وتائية ابن الفارض وبعض أشعار المحدثين.

(و) دراسة التراث والتأليف فيه، أو تقاسموا تراثنا: هذا كتاباً، وذلك عصراً، وآخر بلداً... الخ، وجمعوا مصادره من كل اللغات ورتبوها زمنياً.

ومن تصانيفهم:

(أ) المعاجم.

(ب) دراسات حول الإسلام، النبي والسيرة، والخلفاء، وعن فرقه، وتعاليمه، وعن علومه وآدابه، وعن اللغة العربية وآدابها، وفي علوم العرب.

(ج) الفتح الإسلامي.

(د) السلالات الحاكمة.

(هـ) الفنون والآداب والعلوم.

(و) المجموعات، مثل مكتبة باريس والمكتبة الشرقية الألمانية، وغيرها كثير لا يمكن تعدادها هنا. ثم المعاهد الشرقية والجمعيات والمجلات الآسيوية والمجامع العلمية والمراكز الثقافية.

وساعدها على كل هذا:

(أ) المنهج العلمي، وهو منهج أوروبي لم يبتدعه المستشرقون، بل أترابهم مثل مونتين، وسترافرمون، ومونتسكيو، وديكارت، ولاهاري، وبرونتيير، وغيرهم.

(ب) المميزات الخاصة، مثل معرفتهم للغات السامية، فيتقن بعضهم مثل بيتنركين إحدى وخمسين لغة ولهجة. وتخصصهم في حقل بعينه يمضون فيه عمرهم وأموالهم، ثم جلدهم على العمل، وربما ينقضي العمر في تحقيق أحدهم لمخطوط أو فك رموز معينة.

(ج) احياؤهم لمنسيين أو مهملين من رجالات الفكر والعلم العربي.

(د) المطابع الشرقية حينما لم تكن في المشرق كله مطبعة واحدة، واستوعبت مطبعة ليدن وحدها عشرين لغة شرقية.

(هـ) المجلات الشرقية، فقد نيفت على ثلاثمائة مجلة متنوعة خاصة بالاستشراق، ما عدا مئات تتعرض له في موضوعاتها العامة.

(و) المؤتمرات الدولية، وقد بلغت منذ 1873 إلى 1964 26 مؤتمراً.[23]

ومن هذه الجهود التي كان دافعها العلمي أن أحد المستشرقين وهو المستشرق الهولندي «سنوك هورجرونيه» عندما أراد «أن يكتب عن مكة المكرمة لم يثنه عن هذا العزم لكونه مسيحي، لا يجوز له دخول مكة لدراستها ميدانياً، بل إنه انتحل اسماً إسلامياً هو (عبد

---

(23) المرجع السابق ـ ص74، 75.

الغفار)، وتمت هذه الزيارة عام 1884م وأقام فيها لمدة خمسة أشهر، وساعده على هذا أنه كان يجيد اللغة العربية كأحد أبنائها، وبعد رحلته هذه كتب عن مكة كتابين: الأول بعنوان (الحج إلى مكة) والثاني كان بعنوان (مكة وجغرافيتها في القرن التاسع عشر) في جزئين وقد وصف مكة وصفاً دقيقاً وشاملاً مع الخرائط العديدة لها». [24]

ومن الدوافع والأهداف العلمية عند المستشرقين أنهم اعتنوا بالمخطوطات عناية فائقة، حيث جمعوا المخطوطات العربية من كل مكان تتواجد فيه هذه المخطوطات، وبوسائل متعددة «والعمل على حفظها وصيانتها من التلف والعناية بها عناية فائقة، وفهرستها فهرسة نافعة تصف المخطوط وصفاً دقيقاً، وبذلك وضعت تحت تصرف الباحثين الراغبين في مقر وجودها أو طلب تصويرها بلا روتين أو إجراءات معقدة. وقد قام مثلاً «الوارد» Ahlwrdt بوضع فهرس للمخطوطات العربية في مكتبة «برلين» في عشرة مجلدات بلغ فيه الغاية فناً ودقة وشمولاً، وصدر هذا الفهرس في نهاية القرن الماضي ـ التاسع عشر ـ واشتمل على فهرس لنحو عشرة آلاف مخطوط.

وقد قام المستشرقون في كافة الجامعات والمكتبات الأوروبية بفهرسة المخطوطات العربية فهرسة دقيقة. وتقدر المخطوطات العربية الإسلامية في مكتبات أوروبا بعشرات الآلاف، بل قد يصل عددها إلى مئات الآلاف»[25]

---

(24) الإسلام والغرب ـ د/ حمود حمدي ـ سلسلة قضايا إسلامية (4) ـ المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ـ القاهرة ـ ص20.

(25) المرجع السابق ـ ص23.

فالمستشرقون بحق لديهم صبر عجيب للبحث والتنقيب والدراسة، ويتفانون في أعمالهم بشكل جدي ومتميز للمعرفة والاطلاع، ويستمعون لكل ملاحظة أو نقد يوجه إليهم في ما يدرسونه أو يبحثون عنه، وساعدهم على ذلك إحاطتهم باللغات القديمة والحديثة. وقد أشاد بذلك العديد من العلماء العرب بهذا التفاني للعلم والرغبة في البحث الشاق بهدف المعرفة الشاملة ومن هؤلاء الشيخ مصطفى عبد الرازق الذي أبدى إعجابه بصبرهم وحسن أسلوبهم وسعة اطلاعهم.[26]

ويرى البعض أن العقلانية والحياد الذي انطبع بمسيرة الاستشراق الغربي جاء مع عصر التحول الصناعي والتنوير الفكري بعد إنهاء سيطرة الكنيسة الغربية وتجريدها من سلطتها الزمنية وتراجع فكرة التبشير والتنصير اللذين سادا فترة مع حركة الاستشراق إلى العالم العربي والإسلامي.

لكن الإشكالية أن العقلية في هذه الفترة انتكست إلى مركزية أوروبية وفكرة فوقية، وظهرت فكرة أن الإنسان الأوروبي أكثر تحضراً وعقلانية، وأرقى سلالة من الشعوب الشرقية، وهذا يعني أن هذه الشعوب أكثر تخلفاً وهمجية، لكن الكثير منهم «أصبح أكثر تسامحاً وعقلانية، غير أن الصورة العامة، بقيت أسيرة عقلانية عصر التنوير وأيديولوجيته. وعلى سبيل المثال لا الحصر، فقد أصبح الدين الإسلامي ديناً عقلياً بعيداً عن الديماغوجية، بالنسبة إلى الدين

---

(26) الاستشراق المشبوه ـ د/ البدراوي زهران ـ مجلة المنهل ـ العدد (534) ـ المجلة (58) ـ يوليو، أغسطس 1996م ـ جدة، المملكة العربية السعودية.

المسيحي، الأكثر تعارضاً مع العقل، فالدين الإسلامي، يوفق بين الدعوة إلى حياة أخلاقية والاحترام المعقول لمطالب الجسد والحواس والحياة الاجتماعية، إنه دين أقرب إلى دين الإله المجرد الذي يدين به معظم مفكري التنوير. كما ظهرت سيرة الرسول محمد وحياته أكثر وضوحاً وتسامحاً وواقعية، ولم تعد الصورة مشوهة، كما كانت خلال العصور الوسطى وبعدها»[27]

في هذه الفترة بالذات بدأت تتحول الصورة إلى الشرق وإلى العرب والمسلمين بشكل أخص، وبرزت ظاهرة الاتجاه إلى الاستشراق الرومانسي ودراسة ما هو غريب وعجيب [exotisch] في هذا الشرق الغامض بالنسبة لهم.

ويرجع البعض إلى أن الثورة الصناعية وآثارها الاقتصادية والاجتماعية في الغرب دفعت البعض إلى الهرب من هذا الواقع، الصارم والمادي والنفعي الخالص، والاتجاه إلى حضن الطبيعة والفطرة التي ما زال الشرق يتلحف بها. وتولدت عن ذلك التوجه الأنثولوجيا الرومانسية، مثلما تولدت الرومانسية الإنجليزية التي توجهت إلى الشعر البدائي الجاهلي، وميل الشعراء إلى كل ما هو غريب ومجهول «مثلما فعل «وليم جونس»، في إنجلترا، سعت أيضاً حركة [strumm und drangs] في ألمانيا للتوصل إلى معنى الإبداع في صورته البدائية والروعة والخيال السحري. ومثل انشغالات هيردر (Herder) (1776 ـ 1841) في دراساته التاريخية ـ الفلسفية،

(27) صورة الشرق في عيون الغرب ـ مرجع سابق ـ إبراهيم الحيدري ـ دار الساقي ـ لندن، ط1، 1996م ـ ص39، 40.

عن الآداب الشرقية وإسهامات العرب والمسلمين في الفلسفة والعلوم التجريبية والثقافة الإنسانية، حيث قال «لقد كان العرب أساتذة أوروبا». وكذلك شاعر ألمانيا العظيم «غوته» الذي كتب العام 1774 قصيدته الرائعة، نشيد محمد، يضاف إلى ذلك ما كتبه في «الديوان العربي ـ الشرقي» العام 1869. أما فردريك شليغل فقد اتسمت فلسفته عموماً بأعلى ما وصلت إليه الرومانسية في ألمانيا، إذ دعا إلى البحث عن الرومانسية في الشرق، والغوص في مضامينها الرائعة»[28].

ويقال إن الشاعر الألماني «غوته» تأثر بكتابات بعض المستشرقين المنصفين للإسلام، ومن هؤلاء المستشرق الهولندي «هادريان ريلاند» من خلال كتابه (الديانة المحمدية)، حيث عرض طرحاً منصفاً للإسلام والرسول (ص) في هذا الكتاب. ففي تلك الفترة (القرن الثامن عشر) كان التحول، كما تمت الاشارة آنفاً في مواقف المستشرقين، تجاه الإسلام والشرق أبان الثورة الصناعية وحركة التنوير الغربية التي ابتعدت كثيراً عن الأفكار والآراء الكنسية وأحكامها المسبقة عن الشرق عموماً والعرب والإسلام على وجه الخصوص، وكان دافعهم في هذه الفترة في الأغلب الأعم هو معرفة الشرق وسحره وغموضه في نظرهم ومهد الديانات والحضارات الخ.

وقد استفاد «جوته» من قراءاته هذه في التعرف على معارف الشرق من خلال قراءة ترجمة القرآن الكريم في مرحلة مبكرة، كذلك موسوعة «بارتيلمي دربيلو» الشهيرة «المكتبة الشرقية»

(28) المرجع السابق ـ ص40، 41.

(بالانجليزي) لغزارة معلوماتها عن الشرق والعرب والإسلام، على الرغم أنها لم تكن منصفة حسب تقدير بعض الباحثين.[29].

وإذا أردنا تتبع الدوافع والأهداف التي اضطلع بها المستشرقون لدراسة الشرق والعرب والإسلام، لاحتاجت إلى مباحث طويلة ومتعمقة لمناقشة هذا الجانب. لكننا في بحثنا سنتتبع جهود المستشرقين العلمية في كشف التاريخ العربي كما أشرنا في فصل آخر.

ولا شك أن الاستشراق قدم في مجال التاريخ والآداب والآثار والعلوم الاجتماعية دراسات هامة ومتعمقة للحضارة العربية الإسلامية. ومن هذه الكتب كتاب (تاريخ الآداب العربية) لكارل بروكلمان و(تاريخ الشعوب الإسلامية) و(خلاصة تاريخ العرب) إل. أسيديو. وكتاب (تاريخ أبو الفدى) للمستشرق الألماني رايسكه.

كذلك ما قاموا به من جهود في مجال الترجمة وحفظ المخطوطات والآثار والفهارس والمعاجم للقرآن الكريم والسنة النبوية والسير وغيرها من الكتب والمصنَّفات العلمية والتراثية الخ.[30]

ورغم أهمية نقد الاستشراق ونقده «المعكوس» ودفاعه الناقد على النقد الموجه إليه، فإنه من العدل ألا نجعل كل الاستشراق في

---

(29) أنظر جوته والعالم العربي ـ تأليف / كاتارينا مومزن ـ ترجمة د/ عدنان عباس علي ـ مراجعة د/ عبدالغفار مكاوي ـ عالم المعرفة ـ سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ الكويت ـ ص179 ـ 180.

(30) سنتناول بالتفصيل جهود المستشرقين في الباب الثاني من هذا البحث لكل مجال من المجالات التي درسها الاستشراق بالقدر المتاح.

سلة واحدة، لمجرد الأخطاء الصادرة عنه في بعض جوانب دراساته وأبحاثه أو نتيجة لأطماع الاستعمار وأهدافه المشبوهة في هذه الدراسات والأبحاث. «إلا إذ خلطنا بين النقد العلمي وبين النقد السياسي أو النقد الثقافوي البحت. وبالمقابل فإذا كان الحفر السوسيولوجي في طرق مواجهة المعرفة والسياسة والثقافة الشرقية (العربية هنا) للإستشراق والعلوم الاجتماعية مهماً وملحاً، فإن مزيد الحفر في النظام المعرفي للإستشراق حفراً سيوسيولوجياً يبدو لا يقل أهمية وإلحاحاً. فالنقد الموجه للإستشراق التقليدي، وبخاصة من خلال اتهامه بالمركزية، واحتكار العقلانية والإنسانية، لم يتدعم في أغلب الأحيان بتحليل علمي يرتكز على أسس موضوعية.»[31]

والاشكالية التي وقع فيها الاستشراق - التقليدي منه والحديث- أن آراءهم في الإسلام والعرب ـ في أغلبها ـ كانت نظرة قاسية وغير عادلة ومنطلقة من زاوية أيديولوجية ارتجاعية، وكادت أن تغمط مكانة الاستشراق في جوانب كثيرة، وهي مكانة تستحق التقدير والاشادة، لما طرحته من آراء منصفة وجادة وبعيدة عن الأحكام المسبقة التي كانت عند بعض المستشرقين تجاه الإسلام والعرب، وهذه الرؤية ـ كما قال هشام جعيط ـ اتسمت برؤية سيكولوجية جامدة للإسلام وبنزعة مركزية للأنا والآخر تكاد تنسف فكر وحضارة بل وعقلية الآخر المختلف. وهذه قللت كثيراً من وضعية الاستشراق وربما مكانته، إذ صور أنه ملأ الفراغ الذي وجده في فترة من الفترات وهي فترة ضعف العرب والمسلمين وتراجعهم العلمي

---

(31) إشكالية العلاقة بين العرب والغرب ـ جريدة الخليج (الثقافي)، الشارقة ـ محمد نجيب أبو طالب، العدد (7379)، 20 أغسطس 1999م.

والثقافي وكذلك فترة الاستعمار ونتائجه السلبية.[32]

وهذه الرؤية الجامدة أيضاً في بعض منطلقاتها ضخمت «الأنا» بصورة لا عقلانية، وتخالف ما يطرحونه للآخر المختلف بأنه «لا عقلاني» ناهيك عن قدراته وملكاته العقلية والفكرية وإقصاء الآخر وتهميشه فكرياً وثقافياً، والعمل على تأسيس ذاكرة تاريخية ثقافية محورها «الأنا» الغربي وتميزه وتفوقه بصفات وخصائص يفتقدها الآخر عقلياً وحضارياً وعرقياً.[33]

وهذا التهميش والإقصاء والمركزية «الأنا» وتجريد الآخر المختلف من كل صفات النبوغ والتحضر والعقلانية، تخالف وتناقض جهود شريحة مهمة من المستشرقين الذين تحدثوا عن حضارة عربية إسلامية أصيلة ومتميزة، وكشفوا عن تاريخ وآثار تنم عن تصور غير مسبوق لحضارات عريقة في مصر والشام والعراق والجزيرة العربية، وهذا ما جعل الكثير من الباحثين الغربيين ينتقد هذا التحيز والتحامل والتعصب. وهذا ما طرحه «تيري هانتش» في كتابه (الشرق المتخيل) الذي اعتبر أن التاريخ الغربي شوه بالفعل حقائق من خلال الاستشراق، وسكت بشكل نسقي عن كل العطاءات العلمية والحضارية العربية وغيرها من المنجزات العلمية والفكرية الشامخة. ويرجع هانتش هذه الأسباب ـ وهي واهية ـ أن

---

(32) أوروبا والإسلام ـ صدام الثقافة والحداثة ـ هشام جعيط ـ دار الطليعة ـ بيروت، ط1، 1995م ـ ص44 ـ 47.

(33) الأصولية وفق المفهوم الغربي لا مكان لها في الإسلام ـ عبدالله علي العليان ـ ملف (مصير الأصولية) ـ جريدة الشرق ـ لندن ـ العدد (6680) ـ 13/ 3 / 1997م.

الغرب منفصم «بين الاعجاب بالعلم العربي والعنصرية المناهضة للإسلام» فهل يمكن أن يكون هذا التبرير مسلكاً للتحامل والتزييف للحقائق التاريخية وكأبحاث ودراسات للحضارة الإسلامية؟[34]

ولذلك وجدنا بعض الباحثين العرب من يعتقد أن الاستشراق شب وترعرع في حضن النظام الفكري الغربي الذي ساد أوروبا في القرن التاسع عشر، وأن المستشرق الذي ينكب على دراسة الشرق، سكانه وأحواله وحضارته لا يمكن أن يبقى بمعزل عن التأثر بشكل أو بآخر بهذا الفكر، حتى المستشرق الذي لم يعمل من خلال المؤسسات الاستعمارية، لا بد أن يتأثر بهذا النظام الفكري والمركزية الغربية التي ترى تفوقها وأحقيتها بالهيمنة وأنها مركز العالم وحضارته، وهذا يستتبع في رأيهم عدم الانصاف والتحيز والعنصرية في بعض الأحيان.[35]

لكننا نرى أن التعميم قد ينتج عنه خطأ في التقدير والتقييم، ولذلك فإنه من الحق أن نقول إن بعض المستشرقين أنصفوا العرب والحضارة العربية الإسلامية، وقدموا خدمات جليلة وعظيمة لهذه الحضارة لا يمكن نكرانها، بغض النظر عن التقييم في الدوافع والأهداف التي جعلتهم يتصفون بهذه الصفات، وفي حماسهم وتفانيهم واخلاصهم لهذا العمل العلمي والبحثي في الحقول التاريخية والثقافية العديدة.

---

(34) المتخيل والتواصل.. مفارقات العرب والغرب ـ محمد نور الدين آفاية ـ دار المنتخب العربي، ط1 1993م.

(35) المشروع النهضوي العربي ـ مراجعة نقدية ـ د/ محمد عابد الجابري ـ مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت، ط1، 1996م ـ ص27، 28.



الباب الثاني

جهود المستشرقين
في كشف التاريخ العربي



الفصل الأول

المخطوطات

قدم المستشرقون خدمات جليلة وهامة في مجال الحفاظ على المخطوطات العربية وفهرستها، والاعتناء بها من الضياع والتلف وتعدى ذلك إلى تحقيق الكثير منها ونشرها وكتبوا الكثير من البحوث والدراسات القيمة من خلال تحقيقها تحقيقاً علمياً، وترجموا مئات الكتب العربية والإسلامية كنتاج لهذا التحقيق.

وهذا الجهد القيم من الاهتمام بالمخطوطات العربية أثمر عن خطوات ذات قيمة علمية. فبالإضافة إلى جهود المحافظة عليها وصيانتها وفهرستها فهرسة علمية، حيث تم وضع وصف دقيق للمخطوطات، والإشارة إلى ما يتضمنه كل مخطوط من موضوعات، إلى جانب ذكر المؤلف، وتاريخ ميلاده، ووفاته، وتاريخ تأليف أو كتابة المخطوطات أو نسخها، وتم وضع هذه المخطوطات في المكتبات العامة للإطلاع عليها، والاستفادة من مضامينها الفكرية والعلمية. ومن هذه الجهود ما قام به الوارد (باللغة الإنجليزية) من وضع فهرس للمخطوطات العربية في مكتبة لندن في عشرة مجلدات بلغ فيه الغاية من الدقة والشمول، واشتملت فهرسته على عشرة آلاف مخطوط في نهاية القرن الماضي. وقد حصل هذا العمل أيضاً في كل

الجامعات والمكتبات الأوروبية، وتم عمل فهرسات دقيقة للمخطوطات.[1]

وهذا بحق يشهد للاستشراق العلمي والمنهجي النزيه الذي اضطلع بهذا الجهد العلمي، ولو قارنا ما يجري لمخطوطاتنا في العالم العربي والإسلامي وبين جهودهم لوجدنا البون الشاسع بين ما قام به هؤلاء المستشرقون وبين ما قمنا به، نحن، بل وإننا وبحكم أنها نتاج إبداعنا كعرب ومسلمين لم نقم بجهد يذكر للحفاظ على هذه الكنوز العلمية وما تحتويه من مآثر قيِّمة أدبية وعلمية وثقافية وغيرها من المعارف.

وتلك مفارقة تدعو إلى التأمل والتفكير، فقد نخسر مئات الملايين في سبيل أشياء تافهة وغير مجدية، ونترك كنوزنا العربية للضياع والتلف والإهمال مثل ما يحصل للمخطوطات في العديد من البلاد العربية، فقد قدر المستشرقون المخطوطات الشرقية ومنها ـ المخطوطات العربية ـ عندما أهملناها وتركناها نهباً للتلف والضياع، فجمعوها أو ساعدوا على جمعها بوسائل شتى، وبهمة لا تعرف الكلل، ولئن اقتنوا بعضها بثمن بخس في أحيان كثيرة، ولكن منها ما حمل إليهم حملاً في عقر دارهم، فقد طلبوها بالأسفار الطويلة والنفقات الباهظة في مختلف الأصقاع حتى توفر لديهم من المخطوطات العربية وحدها نفائس تقدر بالملايين أكثرها من أمهات الكتب القيمة والنوادر والمعارف المختلفة، وكلها في العلوم الإسلامية، ثم أحلوها محلها من المكتبات العامة والخاصة المستقلة

(1) الاستشراق المشبوه ـ مجلة المنهل، مرجع سابق ص56.

بها، ووقف كثيرون منهم مجموعاتهم. ولم يكتفوا بترتيبها في مكتبات الغرب التي تعد بالمئات، بل تعاونوا على ترتيبها في مكتبات الشرقين: الأوسط والأقصى وشمالي أفريقيا، فتوالى على دار الكتب المصرية الأمناء منهم، وكان اتيين كومب آخر من رتّب مكتبتي الإسكندرية وجامعتها. وهكذا جعلوا التراث الشرقي من أهداف المكتبات والمتاحف والمعاهد، التي كانت وما زالت مراكز لصيانة التراث الإنساني، وتثقيف المتأخرين به، وتحقيق المعاصرين فيه، ونقل روائعه إلى الأجيال التالية. وواحد من هذه الأهداف كفيل بأن يعوضهم عن جهدهم وما خصصته حكوماتهم من الأموال لها، وما وقفه الخيّرون عليها.[2]

ولهذا كان الاحتفاظ بهذا التراث الكبير من المخطوطات العربية مدخلاً لدراسته وتحقيقه بعد أن تم بذل مجهودات مضنية إلى فهرسته بطريقة علمية دقيقة، ووضعه في مجلدات عديدة مرتبة ومنقحة، حيث تناولت أسماء أصحاب هذه المخطوطات وتاريخ كتابة كل مخطوط ونسخه ومحتواه ونوع الورق، وحجمه وعدد الصفحات الخ.

بعد ذلك جاءت مرحلة التحقيق والترجمة وهي المرحلة الأصعب، إذ عمدوا ـ كما قال نجيب العقيقي ـ إلى «احيائها بتحقيقها وبنشرها عن كفاية وجلد وافتتان على أحدث منهج علمي من قراءة نصوصها الصعبة في أوراق طمس الزمن الكثير من ملامحها، ثم مقابلتها بنظيراتها، والتماس الأصالة فيها، والتثبت من

(2) المستشرقون ـ نجيب العقيقي ـ دار المعارف، القاهرة، جزء 3 ـ ص352، 353.

صحة نسبها إلى أصحابها بمتعدد الأقلام، وفي مختلف الأزمان، مهما كلفهم ذلك من عناء ووقت ومال، ففلوجيل مثلاً قضى خمساً وعشرين سنة في جمع مخطوطات نص كتاب الفهرست لإبن النديم، من مكتبات فيينا وباريس ولندن. ومات ولم يتم تحقيقها ـ ومن تصحيح ما فيها من تحريف أو تصحيف ونقدها وتمحيصها على ضوء الاكتشافات الحديثة في الآثار والعلوم والآداب والفنون، ومن أمانة على النص بحيث لا يبيح لقلمه أن يتناول كلمة أو حرف منها بالحذف والإضافة أو التغيير ومن شرح غوامضها والاستدراك عليها والإضافة إليها في هوامش صفحاتها. هذا إلى مقدمات مسهبة ومعاجم مفسرة وفهارس للأغراض والأعلام والكتب منسقة».[3]

وما أن حل عام 1883 حتى بلغ عدد المخطوطات العربية في المكتبة الوطنية بباريس وحدها، بحسب فهرس دولاسلان الذي طبعه زوتنبرغ، قرابة ثلاثة آلاف مجلد وأربعة مجلدات، ويحتمل أيضاً بأن يكون كثيراً من هذه المجلدات قد احتوى كل منها على أكثر من مخطوطة في الوقت نفسه، يضاف إلى هذا العدد قرابة اربعمائة وتسع وأربعين مخطوطة جلبت إلى المكتبة الوطنية بعد توقف العمل في الفهرس المذكور وقبيل نشره.[4]

وقد دفعهم حبهم للعلم ومعرفة حضارات الأمم وأديانها ولغاتها ومنجزاتها العلمية والثقافية إلى البحث والتنقيب عن هذه المخطوطات بشغف وفهم، فجاءت أبحاثهم آمنة ومنصفة ومنهجية في هذا الجانب.

---

(3) المستشرقون، المرجع السابق ـ الجزء 3، ص394، ص395.

(4) تاريخ الدراسات العربية في فرنسا ـ مرجع سابق، ص66.

وهذا ما قاله الباحث يوسف جبرا في كتابه (تاريخ دراسة اللغة العربية في أوروبا) من أن الباعث على «دراسة اللغات الشرقية في أول الأمر كان دينياً وحربياً في القرون الوسطى، ثم تحول بعد ذلك إلى أغراض علمية هدفها كشف ما تكنه العلوم والفنون الشرقية من كنوز ثمينة. وبتقدم هذه الدراسات اتصل حبل المودة بين الشرق والغرب، وتوثقت العلاقات العلمية بين الدول الشرقية والغربية، وكان للمستشرقين فضل في تنبيه الأفكار وبمؤلفاتهم إلى إدراك الحقيقة الخالدة التي طالما أنكرها الغربيون وهي أن المدينة الأوروبية الحديثة مبعثها الشرق وعلومه وحضارته وفلسفته»[(5)].

وقد اتبعوا في هذه الجهود المنهج العلمي الصحيح في النشر والتحقيق، وليس الأسلوب العشوائي أو التجميعي غير الممنهج في نشر ودراسة المخطوطات العربية وغيرها من المخطوطات الشرقية. وجاءت هذه المنهجية دقيقة وسليمة من الأخطاء في معظمها «فانطوني بيفان» حقق نقائض جرير والفرزدق، في 1102 من الصفحات، وحين عثر على خلل في أوزان أحد أبياتها، بعد نشرها اغتم غماً شديداً، ولم يعزه عنه تذييله النقائض بفهرس معجمي لتفسير بعض معاني الألفاظ التي أهملتها المعاجم العربية القديمة. بحسب القرائن التي وضعها «بيفان» بعد ذلك، وما تضمن ذلك الفهرس من حواش وشروح جديدة. فجاء هذا الفهرس المعجمي في 367 صفحة.

والمستشرق «دي خويه» حقق مخطوطات في: تاريخ الرسل

---

(5) المستشرقون وتوجيه السياسة التعليمية في العالم العربي ـ نايف بن ثنيان بن محمد آل سعود ـ دار أمية للنشر والتوزيع، الرياض ـ ط1 1993م ـ ص49، 40.

والملوك للطبري، في 87 صفحة و150 مقدمات وفهارس. والمستشرق مرجليون حقق من المخطوطات معجم الأدباء لياقوت في 7 أجزاء. والمستشرق وآربري: كتاب المواقف، ويليه كتاب المخاطبات للنفري. والمستشرق ياكوب: أسماء النبات المذكورة في الشعر الجاهلي.

وكثيراً ما يتعاون المستشرقون فيما بينهم لإنجاز عمل علمي أو فكري، وحدث في كتاب فتوح البلدان للبلاذري بتحقيق: «دي خويه» والوارد في ثلاثة أجزاء (1863ـ 68) وكتاب الطبقات الكبرى لإبن سعد كاتب الواقدي بتحقيق: زاخاو، وهوروفيتش، وليبرت، وسرستين، وبروكلمان. بعد مقابلة مخطوطه على معظم نسخه في مكتبات العالم (1904 ـ 18)[6]

وقد جرى التسابق بين المستشرقين لشراء المخطوطات أو طلبها بدون مقابل وبوسائل متعددة. وتم اغتنام ظروف الشرق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وهي فترة الهجمة الاستعمارية، واستطاعوا الحصول على الكثير من المخطوطات العربية والاعتناء بها وتحقيقها بطريقة علمية كما أشرنا سابقاً. ويقال إن الملك «لويس الرابع عشر» في القرن السابع عشر أرسل رسله إلى جميع بلدان الإسلام لشراء المخطوطات العربية وزود مبعوثيه بأوامر شريفة إلى جميع القناصل الفرنساوية ليضعوا رجالهم وأموالهم في خدمة هذه الغاية.

وفي أوائل القرن العشرين أيضاً قام الدكتور «منجان» بجمع ما يستطيع جمعه من المخطوطات العربية من الشرق الأدنى، ثم جعل

---

(6) المستشرقون ـ مرجع سابق ـ ص395 ج 3.

لها مع مجموعات أخرى لغيره فهرساً خاصاً(7)

ومن هؤلاء الذين اهتموا بتحقيق المخطوطات العربية وتاريخها، سيما في علم الجغرافيا المستشرق الألماني «فرديناند فستنفلد» الذي درس اللغات السامية دراسة وافية بجامعتي جوتنجن وبرلين. وتركزت جهود فستنفلد على دراسة الأصول العربية في ميداني التاريخ والجغرافيا، ويعتبر فستنفلد أول من زوّد نشراته بالفهارس المفصلة مما سهل على الباحثين الاطلاع عليها دون عناء يذكر. وكذلك جهده في تحقيق أسماء الأعلام والأماكن وارجاع النصوص والاستشهادات إلى مصادرها الأصلية.(8)

ومن الاهتمامات التي اضطلع بها «فستنفلد» دراسة وتحقيق الكثير من المجالات العلمية العربية سيما التاريخ والجغرافيا ومن هذه الأعمال الرائدة نشره للمعجم الجغرافي لأبي عبد الله البكري (487 ـ 1094) وهو يعد أكبر جغرافي أنجبته الأندلس قاطبة ـ كما يقول بعض الباحثين ـ ويحمل اسم «معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع» مع مقدمة طويلة عن «الجزيرة العربية ومناطقها ونواحيها مثل الحجاز وتهامة واليمن. وفي القسم الثاني من المقدمة يعالج الكلام على القبائل المستوطنة في الجزيرة وعن ترحالها ـ وبعد ثناء «دوزي» على هذا المعجم ـ تعمق في دراسته، وأدهشته مقدمته

---

(7) الاستشراق وجه الاستعمار الفكري ـ د / عبدالعال محمد الجبري ـ الناشر مكتبة وهبة ـ القاهرة ط 1 ـ 1995 ـ ص 23.

(8) المستشرقون والجغرافيا ـ صلاح الدين عثمان هاشم (وآخرون) مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية [تونس ـ المنظمة العربية للتربية والعلوم] [الرياض ـ مكتب التربية العربي لدول الخليج] 1985م، ج1، ص78.

فنقلها كلها إلى الألمانية، ودبّج على أساسها بحثاً هاماً عن قبائل الجزيرة العربية ظهر عام 1869، ثم اتجهت عنايته إلى نشر المعجم فشرع في مقابلة المخطوطات المختلفة وهي مخطوطات مكتبات ليدن وكمبردج ولندن وميلان، واستخلص من هذه الأربع صورة كتبها بيده ونشرها في طبعة حجرية في مجلدين كبيرين من القطع الكبير بلغ مجموع صفحاتها مع المقدمة والفهرس أكثر من تسعمائة صفحة، صدر المجلد الأول منها عام 1876 وتلاه الثاني عام 1877.»[9]

ويتحدث نجيب العقيقي عن جهود المستشرقين في مجال المخطوطات فيقول:

وقد وفر لنا المستشرقون ألوف الذخائر العربية مرتبة محررة موثقة، تجلها مكتباتنا، وتعتمد عليها جامعاتنا، ويستند إليها علماؤنا، إذ سبقنا المستشرقون إلى نشرها، لا لأمتنا فحسب، بل بترجمة معظمها إلى سائر لغاتهم، ومن أشهرها: سلك البيان في مناقب القرآن، وتفسير القاضي البيضاوي، وسيرة ابن هشام، ورحلة ابن جبير، ورحلة ابن بطوطة، ونزهة المشتاق للإدريسي، والكامل للمبرد، ومروج الذهب للمسعودي، ومقدمة ابن خلدون، والجبر والمقابلة للخوارزمي وكتاب الملاهي لإبن سلمة، والصل لإبن بشكوال، والتكملة لإبن الآبار، وتاريخ علماء الأندلس لإبن الغرضي، والمحاسن والمساوئ للبيهقي، والوزراء والكتاب للجهشيارى، وكتاب الفهرست لإبن النديم إلخ، وقد بلغ حرصهم

(9) المرجع السابق - ص79، ص80.

على تطبيق منهجهم العلمي عليها إلى نشر بعضها في أكثر من سبع طبعات لمقابلتها على المكتشف من نسخها وتصحيح أخطاء أوائلهم، والاستدراك عليها، والبلوغ بها حد الكمال: كسيرة ابن هشام، وتفسير القاضي البيضاوي، ونزهة المشتاق، وغيرها.

وعندما أخذتها مطابعنا عنهم، أغفل بعضها أسماء المستشرقين ومقدماتهم ومعاجمهم ـ فعل أبي عبد الله السورني بديوان النعمان بن بشير الأنصاري وفي ذيله ديوان العجيلي بتحقيق كرنكوف ـ وشوهت شروحهم واستدراكاتهم وفهارسهم ـ كتشويه مطبعة السعادة طبقات الشعراء الجاهليين والإسلاميين للجمحي، بتحقيق جوزيف هيل ـ وتصرفت في نصوص المخطوطات ونسبت بعضها إلى غير صاحبه، فكانت سيرة ابن هشام وتفسير القاضي البيضاوي في مطابع المستشرقين خيراً من طبعة الآستانة ومصر. لذلك باشرت مكتبة المثنى في بغداد إعادة طبع أهم منشورات المستشرقين بطريقة الأوفست منها: البدء والتاريخ، ونهاية الإقدام، وإنشاء الدوائر، وتاريخ الحكماء، وتاريخ ابن القلانسي، وعلم الفلك، وكتاب النقط والضبط، وزبدة كشف الممالك، وصورة الأرض، وتاج التراجم، ومختصر كتاب البلدان، وكتاب عجائب الأقاليم السبعة، وأحسن التقاسيم، وأخبار الحلاج، وديوان شعر ذي الرمة، وكتاب المصاحف، والمعجم في أصحاب القاضي الصدفي، وطبقات الأطباء والحكماء والآثار الباقية، والفصل في الملل والأهواء والنّحل، والمسالك والممالك، وتقويم البلدان، وتجارب الأمم، وشرح ديوان المتنبي، والعيون والحدائق، وكتاب التفهيم لأوائل صناعة التنجيم، والأدب العربي في القرن العشرين والمطبوع عام

(1946) وأعلنت عن نشر غيرها.[10]

وهذا ما أشارت إليه أيضاً الدكتورة بنت الشاطئ في محاضرة لها بالموسم الثقافي الكويتي عام (1957)، حيث طرحت المقارنة بين ما فعله المستشرقون بهذه المخطوطات، وما فعلناه نحن عندما اطلعنا على جهود المستشرقين في هذه المخطوطات فقالت إننا للأسف «نقابل صنيع من اشتغلوا منا بنشر المخطوطات، منذ أواخر القرن التاسع عشر إلى منتصف القرن العشرين، بصنيع المستشرقين فتروعنا المقابلة: فأمانتهم في نقل النص يقابلها عندنا عبث بالنصوص يتناولها بالحذف والإضافة والتغيير... ودقتهم في مقابلة النسخ الخطية للنص والتماس الأصالة فيها والتثبت من صحة نسبها يقابلها عندنا إغفال لذكر النسخة المنقول عنها أو إخراج طبعات ملفقة مرقعة تنسب إلى المؤلف القديم دون أن يتصل به نسبها... وبدا واضحاً أن أكثر القوم هنا لم يقصدوا إلى شيءمن النشر العلمي، ولا عناهم أن يثقلوا على أنفسهم ببعض أعبائه وتبعاته، ولا أن يضبطوا أقلامهم بشيء من نظمه ومناهجه، إنما اتخذوا النشر وسيلة ارتزاق فحسب»[11]

وإذا اتجهنا إلى فرنسا باعتبارها من الدول الأوروبية الأولى التي اهتمت بالدراسات الشرقية والتاريخ والتراث العربي عموماً، فإننا نجد أنهم من أوائل من اتجه إلى معرفة العرب والشرق من خلال المخطوطات والآثار المكتوبة والمدخل الأول إلى ذلك تعليم اللغة

---

(10) المستشرقون، نجيب العقيقي ـ ص395، ص396.
(11) المرجع السابق، ج 3 ص396. [تعليق].

العربية باعتبارها المفتاح الأساسي لمعرفة حضارة العرب والمسلمين وتاريخهم، ولذلك اتجهوا إلى جمع المخطوطات من شتى بقاع العالم المشرق ومن المكتبات ودور العلم ومن الأفراد.

ويذكر كتاب (عمان وفرنسا صفحات من التاريخ) أن الكثير من الوثائق التي تتعلق بعمان منتشرة في عدة مكتبات بفرنسا تحتوي على وثائق متنوعة كل التنوع وغالبها مصنف «ومبوب». ومن هذه الوثائق أيضاً ما هو محفوظ في المكتبة البحرية باعتبار سلطنة عمان في فترة من الفترات كانت قوة بحرية كبيرة. وهي فترة الامبراطورية العمانية وازدهارها البحري، وامتدت سيادتها إلى بعض الدول الأفريقية الآن.(12)

وتفاوتت المخطوطات التي تم أخذها من العالم العربي في موضوعاتها وأهميتها، وإذا «ألقينا نظرة على فهارس المخطوطات العربية التي أحصاها (المستشرق) الألماني كارل بروكلمان C.Brockelmann في مطلع الجزء الأول من كتابه الضخم الهام: (تاريخ الأدب العربي)، فإننا سنقف مدهوشين إزاء اتساع دائرة انتشار المخطوطات العربية في الغالبية العظمى من كبريات المكتبات المعروفة في العالم المتحضر، بالإضافة إلى غزارتها الملحوظة لدى المتتبعين، ويدل هذا العدد الكبير من الفهارس في ثبت بروكلمان ـ

(12) طبع بمطابع شركة (تيب) ـ لم يذكر تاريخ الإصدار والكتاب يحتوي على مراسلات وزيارات ومعلومات عن عمان وزيارات بعض القطع البحرية الفرنسية وكذلك الأوضاع في عمان وشرق أفريقيا التي كانت بعض دولها تحت السيادة العمانية في ذلك الوقت مثل تنزانيا واوغندا وكينيا وتعتبر زنجبار آخر مدينة بقيت في أيدي العمانيين ولا يزال بعضهم يعيش فيها إلى الآن وهي أكبر جالية عربية كبيرة فيها.

وقد أصبح اليوم قديماً نوعاً ما بالنسبة إلى ما استجد من فهارس لمكتبات أو لمخطوطات لم يدركها بروكلمان نفسه ولم يطلع عليها ـ على ضخامة التراث العربي المخطوط الذي يقف وراءها». [13]

لكن بعض الباحثين يرى أن المحاولات الأولى لجمع المخطوطات في فرنسا مع «غيوم بوستل» (1510 ـ 1583) وتقديمها إلى الكنيسة لمعرفة العرب والإسلام لأسباب تبشيرية، بعد ذلك جاء «سكاليفر» (1540 ـ 1609) ليكمل ما بدأه بوستل لكن بصورة مغايرة إذ تحرر من المصالح التبشيرية كما تقول هذه المصادر. وكذلك «فردينالد دوفيدس» عام 1586 الذي طبع أعمال ابن سينا في الطب والفلسفة، إلى جانب أنه ساهم في طبع كتب النحو والجغرافيا والرياضيات لعلماء عرب ومسلمين. [14]

ويذكر الباحثون أن الاهتمام بالمخطوطات وتحقيقها تقدم تقدماً مضطرداً في مرحلة عصر التنوير الغربي أو ما يسميه البعض بعصر النهضة، حيث ازدادت الرغبة بالتعرف على الشرق وعلى العالم العربي الإسلامي. ففي النصف الأول من القرن السابع عشر لم تكن توجد في فرنسا سوى عشرين مخطوطة فقط، وفي النصف الثاني من القرن السابع عشر وحتى قيام الثورة الفرنسية عام (1789) بدأ النشاط الفرنسي في الاهتمام بالمخطوطات العربية والشرقية عموماً من خلال الرحالة، والمبعوثين والقنصليات المعتمدة في الشرق، والتوجه إلى دراسة اللغة العربية ولغات أخرى شرقية، وتمكنت بعثة فانسليبن

---

(13) تاريخ الدراسات العربية في فرنسا ـ مرجع سابق ـ ص 57، 58.

(14) صورة الشرق في عيون الغرب ـ مرجع سابق ـ ص34.

الفرنسية من تجميع ما يقرب من ستمائة وثلاثين مخطوطة شرقية لمكتبة الملك، كان عدد المخطوطات العربية أربعمائة وثلاثين.[15]

وبعد الثورة الفرنسية زاد الاهتمام أكثر بالمخطوطات العربية وبصورة ملحوظة، وبدأ نشر فهرس دوسلان للمخطوطات العربية في المكتبة الوطنية بباريس، إلى عام 1883، وتم جمع كل المخطوطات الشرقية المتواجدة في الكنائس والأديرة في المكتبة الوطنية المركزية وعددها 650 مخطوطة. وبعد حملة نابليون إلى مصر (1798) وامتدادها إلى بلاد الشام كانت حصيلة هذه الحملة ما يزيد على ثلاثمائة مخطوطة. وكان معظم هذه المخطوطات عربية، إذ كان يرافق نابليون العديد من العلماء والباحثين في علوم الشرق، إلى جانب علماء الإدارة والاقتصاد والاجتماع الخ.[16]

وبعد احتلال الجزائر (1830) كان التوجه أيضاً إلى جلب المخطوطات العربية ودراستها وتحقيقها من مهام المستشرقين أو المستعربين الفرنسيين، والأخيرة جاءت بعد التوسع في دراسة الشرق، وتعدد مجالات الاهتمام به من قبل الجامعات ومراكز

(15) تاريخ الدراسات العربية في فرنسا ـ مرجع سابق ـ ص62، ص63.

(16) المرجع السابق، ص64، ص65، يعتبر كشف حجر رشيد إحدى النتائج الإيجابية لحملة نابليون على مصر من حيث استطاع العالم والباحث شامبليون الذي كشف غوامض بعض جوانب الحضارة الفرعونية، واستطاع هذا الاكتشاف أن يكسر الانقطاع في تسلسل الأسر الفرعونية، وهي فترة حكم الهكسوس السوريين لمصر في تلك الفترة، و هذا ما جاء في آيات القرآن الكريم عندما كانت تسميه الآيات بالملك في سورة (يوسف). وليس فرعون، وهذه نتائج عظيمة تستحق التقدير لهذا العالم. لكن الاحتلال الفرنسي يبقى احتلالاً وليس فتحاً كما صوره بعض الكتاب في ذكرى مرور 200 عام على الحملة الفرنسية لمصر.

البحث ومعاهد الاستشراق. فأصبحت الجزائر مصدراً خصباً للحصول على المخطوطات العربية وغيرها من مجالات الاهتمام في الدين والتاريخ والآثار.

وإذا جئنا إلى أعمال المستشرقين وجهودهم في جمع المخطوطات وحفظها وتحقيقها، فإن عدداً كبيراً منهم قام بهذا الجهد الخلاق، لا يتسع بحثنا أن يسرد أعمال كافة هؤلاء المستشرقين. لكننا سوف نعرج على بعض هؤلاء، خاصة الذي أسهموا مساهمة كبيرة في تحقيق المخطوطات العربية والاعتناء بها ونشرها إلى آخره.

ومن هؤلاء المستشرق الألماني «ريسكه» الذي يعتبر من الرعيل الأول للإستشراق.

تعلم ريسكه اللغة العربية برغبة قوية في ربيع 1733 في مدينة ليتسك الألمانية عندما كان يدرس في جامعتها، وبدون مساعدة من أحد، استطاع بعدها أن يتقن النحو العربي، بعد ذلك تابع اهتمامه بالمخطوطات العربية، عندما استوعب كل المطبوعات العربية، واتجه إلى البحث في المخطوطات، فسافر إلى هولندا عندما علم أن مكتبة ليدن غنية بالمخطوطات العربية رغم ضيق ظروفه المادية، لكن شغفه بالمخطوطات دفعه إلى ذلك. وحينما جاء في فترة الصيف ولكون التردد على مكتبة ليدن يحتاج إلى مال فإنه عمل مصححاً لتجارب الطبع مقابل السكن والمأكل، وعمل في الوقت نفسه كمدرس خصوصي في اللغة اليونانية، وفي المحادثة باللاتينية للطلاب الهولنديين بجامعة ليدن.

ولما استؤنفت الدراسة عام 1738 اطلع على المخطوطات

العربية من خلال «الفور اسخولتنزر» فنسخ لنفسه قصائد لجرير، و«لامية العرب» للشنفري، وديوان طهمان، وفي السنوات التالية نسخ «الحماسة» للبحتري ثم المعلقات.

ويعد تحقيق ونشر معلقة طرفة بن العبد من ريسكه فتحاً عظيماً في مجال الدراسات العربية.

وعهد إليه بعد ذلك بترتيب المخطوطات في مكتبة جامعة ليدن. فهيأ له ذلك فرصة ممتازة، فقام بنسخ المؤلفات المخطوطة التي تهمه لتحقيقها مثل «المعارف» لإبن قتيبة، تاريخ أبو الفدا و«البلدان» لأبي الفدا، وتاريخ حمزة الأصفهاني، ومقتطفات من «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» لإبن أبي أصيبعة، وكثيراً غيرها.[17]

ومن المستشرقين الذين اهتموا بالمخطوطات وبالتاريخ العربي «جون بوركهارت» السويسري الأصل، الذي تعلم في جامعة كمبردج ببريطانيا وحمل جنسيتها، ودرس الطب وعلم الفلك واللغة العربية (1806 ـ 1809)، ثم «قصد حلب حيث أتقن اللغة العربية. وقرأ القرآن وتفقه في الدين الإسلامي واعتنقه (1809) وقضى حياته سائحاً بين سوريا ولبنان وفلسطين، حيث كشف عن مدينة البتراء (1811) وشمالي السودان. وقد تسمى بإبراهيم بن عبد الله. وأدى مناسك الحج وقضى بمكة ثلاثة أشهر (1814) عاد بعدها إلى القاهرة وتوفي فيها.

---

(17) موسوعة المستشرقين ـ عبدالرحمن بدوي ـ دار العلم للملايين ـ بيروت، ط1 1984م، ص203، ص206.

وقد وقف مخطوطاته على جامعة كمبردج. ومن آثاره: الرحلة إلى بلاد الشام (لندن 1814 ـ 1822) ورحلة إلى الجزيرة العربية (لندن 1829) وسجلات أسفار في الشرق الأدنى (لندن 1831، باريس 1835) ومجموعة من الأمثال العربية متناً وترجمة إنجليزية وشرحاً (لندن 1830). وقد ترجمت من الإنجليزية إلى لغات أخرى أوروبية، منها الألمانية، بقلم هـ.ح كرمز فيما (1834) وكتاب الرحلات النوبية. وهو من أوائل الكتاب الأوروبيين الذين كتبوا عن العرب القاطنين في شمالي السودان وفي مملكة سنار (وقد تولت الجمعية الإفريقية في إنجلترا نشر جميع مصنفاته) وما زال بعض مخطوطاته في مكتبة ابن أخيه جاكوب بوركهارت. وكان رئيساً لقسم العلاقات الدولية في وزارة الخارجية السويسرية». (18)

ومن المستشرقين السويديين برز المستشرق «سترستين. ك. ف» الذي اهتم بالمخطوطات العربية والشرقية على وجه العموم، إذ رحل إلى العديد من العواصم الأوروبية طلباً للمخطوطات، فقد زار برلين والإسكوريال ولندن وأوكسفورد وباريس وروما والشرق والدانمارك وليبزيج، وعاد إلى بعضها التماساً لتحقيق ما فاته في الرحلة الأولى، مما جعل له يداً أطول في لغات العامة في تونس ومصر والشام وغيرها من بلاد العرب التي طوف فيها غير مرة.

ومن آثار هذا المستشرق السويدي الكثير من فنون الاستشراق ومنها المخطوطات، ومن أهم ما قام به تحقيق رسالة يحيى بن عبد

---

(18) المستشرقون وتوجيه السياسة التعليمية في العالم العربي ـ مرجع سابق ـ ص132، ص133.

المعطي الزواوي في الدرة الألفية في علم العربية، ودراسة عن الحسن بن محمد بن الحسن الصنعاني: وكتابه مشارق الأنوار النبوية من صحاح الأخبار المصطفوية، والألفية لإبن (معطي) عن مخطوطات برلين، والاسكوريال، وليدن، ودراسة عن اللغات الشرقية، ونشر الجزأين الخامس والسادس من الطبقات الكبرى لأبن سعد.

وكتب رسالة أيضاً في مقابلة متن الجزء الخامس من الطبقات بمخطوط محفوظ في مكتبة شهيد علي بابا باستنبول، ودراسة عن مخطوط عن الهجمات العربية، كذلك فهرس بأسماء الرجال والقبائل العربية، وآخر بأسماء الأماكن والأمم (ليدن)، وتهذيب اللغة للأزهري بنصه الأصلي، وتحقيق مخطوط تاريخ ثغر عدن لأبي مخرمة، وتحقيق المخطوطات العربية في جامعة أوبسالة، ووقع الجزء الثالث من معجم لغة قبيلة عنترة الذي صنف الجزأين الأولين منه الكونت لندبرج، والمخطوطات العربية التي خلفها الكونت لندبرج.

وحقق المستشرق سترستين. ك.ف أيضاً طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب للملك الأشرف ابن رسول الغساني، وذيّله بفهارس مفصلة، وقد قدم له الدكتور صلاح المنجد في علم الأنساب عند العرب ومفهوم الشرف.

وحقق كتاب شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم لنشوان بن سعيد الحميري، ونشر الجزأين الأول والثاني من القسم الأول، وكلف ديدرنج اتمامه. عدا ما كتبه عن اللغات السامية وما

نشره من مقالات في هذا الجانب باسم مستعار هو عبد الرحمن.[19]

من المستشرقين الذين اهتموا بالمخطوطات العربية وتحقيقها ودراستها المستشرق الهولندي «ميشيل دي خويه»، ويعد خويه أول من اهتم بنشر طبعات جيدة للمصنفات العربية في ميداني التاريخ والجغرافيا، ولا تزال هذه الطبعات تلقى الرواج والسمعة الجيدة في هذا المجال.

تتلمذ خويه على يد المستشرق الهولندي رينهارت دوزي بعد دراسته للغة العربية التي استمرت عامين. كان دوزي يعمل في دراسة المخطوطات العربية وتحقيقها.

ومن الأحداث الهامة في حياة دي خويه زيارة المستشرق الألماني الشهير تيودور نولدكه لمدينة لين الهولندية شتاءً (1857 ـ 1858) لدراسة مجموعة مخطوطات وارنر في تلك المدينة.

لم يكن نولدكه يكبر دي خويه إلا بأشهر معدودة، لكنه استطاع منذ ذلك التاريخ أن يضع الأسس لسمعة عريضة في ميدان الدراسات السامية ومنها العربية.

وقد اقتنع المستشرق دي خويه منذ البداية بالدراسات العربية ـ ممثلة باللغة العربية وما لقيه من تطور ونمو. وفي التاريخ والأدب العربي اللذين لا يضارعهما تاريخ وأدب شعب آخر في ثرائهما وتنوع أنماطهما، مما جعل الدراسات العربية حجر الزاوية في صرح الدراسات السامية ـ وكان اقتناعه هذا في مصلحة العلم، فبدلاً من أن

---

(19) المستشرقون ـ نجيب العقيقي ـ مرجع سابق، ج3، ص28 ـ 30.

يوزع مجهوداته في دراسة اللغات السامية ركز اهتمامه على العربية وآدابها.

ومن حسن حظ دي خويه أن أستاذه في العربية وهو بينبول قد سهل له مهمة الاطلاع على مجموعة من مخطوطات وارنر الغنية التي حوت الكثير من المراجع العربية.

وقد اتجه دي خويه إلى تحقيق المخطوطات العربية ونشرها في كل مدينة أو جامعة يسمع فيها وجود مخطوطات قيّمة رغم ظروفه المالية التي واجهته، ووجد تذوقاً عميقاً لهذا العمل، فجوّده وكانت أعماله التالية أكثر دقة واكتمالاً.

وقد كانت أطروحاته الأكاديمية عن الجغرافي اليعقوبي، ونشر القسم الأول منه [كتاب البلدان] لليعقوبي الذي يعالج الكلام عن المغرب، وفي مقدمته حدد دي خويه، مكانة اليعقوبي بين الجغرافيين العرب بقدر ما سمحت له حال البحث العلمي وقتذاك.

وكان أول أثر جغرافي يحققه دي خويه بعد فراغه من أطروحته هو قسم من مصنف الإدريسي، ولم يقدر لمصنف الإدريسي بأجمعه أن يرى النور إلا بعد قرن من ذلك حين تحقق الحلم الذي داعب مخيلة دوزي ومعاونه دي خويه.

بعد ذلك اضطلع دي خويه على مدى خمسة وعشرين عاماً (1870 ـ 1894) بتحقيق الأجزاء الثمانية لما يسمى «بمكتبة الجغرافيين العرب» وتتكون هذه الأجزاء من:

1 ـ الجزء الأول: المسالك والممالك للأصطخري ـ 1870.

2 ـ الجزء الثاني: المسالك والممالك (أو صورة الأرض) لابن حوقل ـ 1878.

3 ـ الجزء الثالث: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم للمقدسي ـ 1877.

4 ـ الجزء الرابع: الفهارس، تفسير المصطلحات، الاضافات والتصليحات للأجزاء الثلاثة الأولى ـ 1879.

5 ـ الجزء الخامس: كتاب البلدان لابن الفقيه الهمداني ـ 1885.

6 ـ الجزء السادس: المسالك والممالك لابن خرداذبة، وكتاب الخراج لقدامة ـ 1889.

7 ـ الجزء السابع: الأعلاق النفيسة لابن رسته، وكتاب البلدان لليعقوبي ـ 1892.

8 ـ الجزء الثامن: التنبيه والاشراف للمسعودي ـ 1894.[20]

كما كتب دي خويه بحثاً بعنوان «بعض الأشياء عن الإمام الشافعي» وفيه أضاف معلومات مكملة لما قاله فستنفلد، واستند في ذلك إلى كتاب «المقفى» للمقريزي وكتاب «حلية الأولياء» لأبي نعيم الأصفهاني وهما مخطوطان في مكتبة ليدن.

وكتب وصفاً لمخطوط قديم لكتاب «غريب الحديث» لأبي عبيد القاسم بن سلام الهروي (المتوفي حوالي سنة 222هـ ـ 837 م).

---

(20) المستشرقون والجغرافيا ـ صلاح الدين عثمان هاشم (وآخرون)، مناهج المستشرقين ـ مرجع سابق، ص82 ـ 86.

ولما كثرت المخطوطات بالمكتبة الوطنية بفرنسا بعد أن تم جلبها من مناحٍ شتى، تم تكليف المستشرق الإيطالي «ميشيل أماري» لوضع فهرس جديد وشامل ومطبوع ليكون أداة عمل بين أيدي العلماء والباحثين أساتذة وطلاباً، فتم اخضاع التراث العربي في المكتبة الوطنية لمراجعات دقيقة، وتابع العمل في هذا الجهد العديد من المستشرقين بالتوالي.

وقد أعطى هذا العمل الجديد المتكامل تسلسلاً جديداً لأرقام المخطوطات التي كانت قد اعطيت لكل منها من قبل. وكان وصفه للمخطوطات دقيقاً ومفيداً كل الفائدة. وظل هذا الفهرس الفريد مخطوطاً إلى أن كلف المستشرق زوتنبرغ بإخراجه إلى النور لتعم فائدته، فتم نشره بين عامي [1883 ـ 1895][21] ويأتي المستشرق الهولندي «رينهرت دوزي» ضمن المستشرقين الكبار الذين عنوا بالمخطوطات العربية وبتاريخ العرب وأدبائهم، فتعلم العربية وأتقنها. ترجم في بداية حياته العلمية تاريخ بني زيان في تلمسان بالجزائر، ونشر الترجمة وتعليقاتها في عدد من «المجلة الآسيوية» (1844)، في صيف 1844 قام بزيارة بصحبة زوجته إلى مدينة بألمانيا التي توجد بها مكتبة حافلة بنفائس المخطوطات العربية، فأقام بها فترة، فاكتشف فيها الجزء الثالث من «الذخيرة في أخبار الجزيرة» لابن بسام الشنتريني ووجد في هذا المخطوط معلومات نفيسة جديدة عن السيد القمبيطور في الروايات العربية. ثم سافر إلى انجلترا في

(21) تاريخ الدراسات العربية في فرنسا ـ محمود المقداد ـ مرجع سابق ص77، 78، انظر كذلك عبد الرحمن بدوي ـ موسوعة المستشرقين ـ مرجع سابق، ص33 ـ 35.

العام التالي ابتغاء أن ينسخ المواضيع التي تهمه من المجلد الثاني من «الذخيرة» لابن بسام الموجود في اكسفورد، وهي مواضيع تتعلق ببني عباد. وفي الوقت نفسه قام بنسخ صفحات أخرى من المخطوطات العربية في اكسفورد ولندن، في عام 1846 أصدر الجزء الأول من كتابه «أخبار بني عباد عند الكتاب العرب» وبعد ذلك أصدر الجزء الثاني والثالث وفيه أكمل وصحح الجزء الأول والثاني من هذا الكتاب.

ثم قام بتحقيق نصوص عربية منها على سبيل المثال كتاب «شرح تاريخي على قصيدة ابن عبدون، تأليف ابن بدرون»، وتلاه كتاب «تعليقات على بعض المخطوطات العربية» ثم فصولاً من كتاب «الحلة السيراء» لابن الآبار، تتعلق بالتاريخ السياسي والأدبي للمسلمين في إسبانيا. بعد ذلك أصدر كتاباً محققاً في تاريخ الموحدين لابن عبد الواحد المراكشي، وعندما كلف بعمل فهرس للمخطوطات العربية في مكتبة ليدن بهولندا، قام بهذه المهمة خير قيام وأصدر الجزأين الأول والثاني من «فهرس المخطوطات الشرقية» عام (1851).

وتفرغ عدة سنوات لتأليف كتاب «تاريخ المسلمين في إسبانيا» ويمتد من بداية فتح الأندلس حتى مجيء المرابطون، ويقع في 4 مجلدات.

ويعد كتاب (تاريخ المسلمين في إسبانيا) من أكبر الأعمال التاريخية التي كتبها المستشرقون.

وعندما كتب الناشر الهولندي تاريخ الأديان توجه إلى دوزي

ليكتب فصل «تاريخ الإسلام»، ويتناول تاريخ الإسلام من عهد النبي محمد (ص) إلى عام 1863 ـ وهي الفترة التي عاش فيها دوزي ـ ومن دراساته اللغوية والمعجمية الهامة:

1 ـ ثبتاً شارحاً للكلمات الهولندية المأخوذة من العربية والعبرية والكلدانية والفارسية والتركية.

2 ـ «معجم الألفاظ الإسبانية البرتغالية المأخوذة من اللغة العربية» ثم أكمل ذلك بكتابه «المعاجم العربية» إلى جانب مقالاته وأبحاثه العديدة التي تتكلم في اسهامات وجهود العرب والمسلمين في التاريخ والجغرافيا والسير والرحلات.[22].

والمستشرق الألماني (1802 ـ 1870) فلوجيل.ج أحد المستشرقين المهتمين بالمخطوطات العربية، وقضى فترة في فيينا بين التدريس ومطالعة المخطوطات في مكتبة هامر ـ بورجشتال ثم سافر إلى باريس فقضى فيها فترة بين مكتبة ـ المكتبة الوطنية بعد ذلك ـ والتدريس، وعندما رجع إلى ألمانيا عيّنه الامبراطور استاذاً للغات الشرقية في معهد ميسان الملكي، ثم عهد إليه بوضع فهرس للمخطوطات العربية والفارسية والتركية في ثلاثة مجلدات.

نشر مخطوط «مؤنس الوحيد» للثعالبي متناً وترجمة، وصنف كتاباً في تاريخ الآداب العربية، ثم نشر كتاب «كشف الظنون» لحاجي خليفة متناً وترجمة لاتينية مع فهارس وملاحق في سبعة مجلدات، قضى فيه ما يقرب من ثلاثة عشر عاماً بين دراسة ورحلات إلى أشهر مكتبات أوروبا، وكتاب «نجوم الفرقان في

---

(22) موسوعة المستشرقين ـ عبد الرحمن بدوي ـ مرجع سابق، ص172 ـ ص177.

أطراف القرآن» ألحقه بمعجم مفهرس وتعليقات.

كما ألف رسالة في مصطلحات الصوفية لابن عربي، وكتاب التعريفات للجرجاني، وصنف كتاباً عن الكندي ويعتبر هذا المصنف المحقق من الكتب القيمة عن هذا الفيلسوف العربي. وكتاباً في مدارس العرب النحوية، وفي العرب حتى الجيل العاشر، ونشر كتاباً في ترتيب طبقات الفقهاء، وتاج التراجم لابن قطلوبغا مع فهرس بأسماء الرجال، وتعليقات بالألمانية، وقضى 25 عاماً في جمع مخطوطات كتاب الفهرست لابن النديم من مكتبات فيينا وباريس وليدن، لكنه توفي ولم يتم تحقيقه، فتولاه رويديجر وأوجيست موللر فنشراه في 260 صفحة ثم ألحقا به ذيلاً في 279 صفحة تضمن التفاسير والاستدراكات بالعربية والألمانية وختماه بفهارس الأعلام.[23]

ويشير أحد الباحثين أن الوزير الفرنسي الشهير «كولبير» كان مفتوناً بالمخطوطات العربية، والبحث بشتى السبل عنها، وكان يكلف المعتمدين الفرنسيين لتزويد مكتبة الملك لويس الرابع عشر، وكانت تشترى من العاصمة العثانية استنبول التي كانت مكتباتها تعج بالمخطوطات من الولايات العربية الخاضعة للخلافة آنذاك، وكانت تجمع كذلك من المدن العربية الكبيرة.

ويعتبر المستشرق «انطوان غالان» أحد الذين سافروا إلى المنطقة العربية للبحث عن المخطوطات العربية ثم تحقيقها.

وقد رافق سفير فرنسا إلى الباب العالي (الآستانة) في القرن

---

(23) المستشرقون ـ نجيب العقيقي ـ ج2 ـ ص363، ص364.

السابع عشر، ثم أرسله الوزيران كولبير، ولوفوا إلى الشرق مرة أخرى، وذلك للبحث عن المخطوطات الشرقية ومنها العربية، بغية جمعها وشرائها لمكتبة الملك أو لمكتبتيهما الخاصتين[24]

من مشاهير المستشرقين الذين اهتموا بالمخطوطات العربية وتحقيقها، المستشرق الألماني «جوزيف شاخت» إلى جانب اهتمامه الكبير بالفقه الإسلامي وعلم الكلام.

من أعمال شاخت في مجال المخطوطات تحقيق نصوص عربية مخطوطة في قضايا أدبية، تحقيق نصوص مخطوطة في الفقه الإسلامي، كما قام شاخت في ميدان المخطوطات بدراسة العديد منها في القاهرة واستنبول وفاس وتونس، نشر منها في مجلة الساميات تحت عنوان «من مكتبات في استنبول وما حولها» و«من مكتبات شرقية في استنبول والقاهرة» في مجلة «أعمال الأكاديمية البروسية للعلوم» وكذلك «مكتبات ومخطوطات إباضية» في «المجلة الإفريقية» وبحث بعنوان «في بعض المخطوطات الموجودة في مكتبة القرويين في فاس» في مجلة «دراسات استشراقية» وكذلك بحث في «بعض المخطوطات الموجودة في القيروان وتونس» في «المجلة العربية»، وبحث في بعض المخطوطات الموجودة في مكتبات مراكش.

أما في مجال تحقيق النصوص المخطوطة فإن شاخت حقق:

1 ـ كتاب الخصاف: «كتاب الحيل والمخارج».

---

(24) تاريخ الدراسات العربية في فرنسا ـ محمود المقداد ـ مرجع سابق ـ ص58 ـ ص59.

2 ـ أبو حاتم القزويني «كتاب الحيل في الفقه».

3 ـ كتاب «إذكار الحقوق والرهون».

4 ـ الصحاوي: «كتاب الشفعة».

5 ـ الطبري «اختلاف الفقهاء».

6 ـ الشيباري «كتاب المخارج والحيل».

مع مقدمات وتعليقات وفهارس الخ[25]

ومن المستشرقين الذين اهتموا بالمخطوطات العربية وتحقيقها المستشرق الروسي «اغناطيوس كراتشكوفسكي»، الذي تعلم العربية وزار مصر وسوريا ولبنان وفلسطين متردداً على خزائن كتبها ومخطوطاتها بعد التخرج، عين مديراً لمكتبة اللغات في جامعة بطرسبرج، رحل إلى بعض الدول الأوروبية لزيارة مكتباتها الشهيرة مثل ليبزيج وهالة وليدن لدراسة بعض مخطوطاتها.

نشر مخطوطتين عن الجغرافيا، وعلم الفلك، وكتب عن إسبانيا المسلمة، وجنوبي الجزيرة العربية، وله نظرة في وصف مخطوطات ابن طيفور والأوراق للصولي، له كتاب الحماسة للبحتري، وكان

(25) موسوعة المستشرقين ـ عبدالرحمن بدوي ـ ص152، ص154، انظر كذلك نجيب العقيقي، المستشرقون، ص469 ـ ص471. شاخت بعض الآراء في الفقه الإسلامي وصلته بالقانون الروماني، وقد فند بعض الباحثين العرب شبهات "شاخت" وتم دحضها بالرد العلمي في العديد من المؤتمرات. ومن هؤلاء الذين ردوا على شاخت أستاذنا صوفي حسن أبو طالب رئيس جامعة القاهرة الأسبق أستاذ النظم الاجتماعية في كلية الحقوق جامعة القاهرة، انظر كتابه «تطبيق الشريعة الإسلامية في البلاد العربية» ـ دار النهضة العربية ـ ط1 1986م، انظر الباب الثاني من الكتاب ص245 ـ 285.

أول من اكتشفها في أوروبا اكتشافه مخطوط ابن ماجد، حقق مخطوط المجلد الخامس من تاريخ ابن مسكويه. والخليل بن احمد الفراهيدي واللغة، والتعاويذ عند العرب، جمع مجموعة من المخطوطات من القرآن لأوزبنزكي.

حقق مخطوطاً جديداً لديوان ذي الرمة بشرح الأصمعي، والمخطوطات العربية في القوقاز في القسم الآسيوي من متحف مجمع العلوم.

حقق المخطوطات العربية في مكتبات لينينجراد، وفهرس المخطوطات العربية التي أهداها البطريرك غريغوريوس الرابع إلى القيصر نقولا الثاني.

ومن مباحثه بالعربية: مخطوط طبي نادر في روسيا. والمخطوطان القديمان في مصر وروسيا، وله عدة كتب ودراسات من خلال دراسة المخطوطات العربية في خمسة مجلدات منها الدراسات العربية، ومسائل تاريخ شعوب الاتحاد السوفيتي، دراسة اللغة العربية، أبحاث في الأدب العربي الكلاسيكي، والصلات الأدبية بين العرب والروس، وتاريخ الأدب الجغرافي العربي. وفصول في تاريخ الدراسات العربية في روسيا. ترجمة كتاب ابن المعتز، ووصف المخطوطات العربية في مكتبات الاتحاد السوفيتي، والشعر العربي في إسبانيا، وتاريخ متقدم لمجنون ليلى من الأدب العربي، وله الكثير من الأبحاث والدراسات العربية الأخرى في الأدب والتاريخ والجغرافية واللغة أغلبها استقاها من تحقيق المخطوطات.[26]

---

(26) المستشرقون ـ نجيب العقيقي ـ ج 3 ـ ص83 ـ 90.

ويعد المستشرق الألماني «ماكس مايرهوف» ـ وهو من أسرة يهودية ـ أحد المستشرقين البارزين في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب، وقد درس اللغة العربية في مصر بعد زيارته لها عام 1903، وفتح بها عيادة لعلاج أمراض العيون في القاهرة.

وعندما بلغ السبعين من عمره 1944، أصدرت الجامعة العبرية في القدس ثبتاً بمؤلفاته، وتبلغ عناوينها أكثر من ثلاثمائة عنوان منها تحقيقات لمخطوطات عربية بمقدمات مسهبة وتعليقات مفيدة وقيمة.

ومن أهم أعماله في مجال تحقيق المخطوطات: [تاريخ الصيدلة والنبات عند المسلمين في إسبانيا]، و[الصيدلة والنبات عند الإدريسي] و(عشر مقالات في العين) تأليف حنين بن اسحق، و(خمس رسائل لابن بطلان البغدادي ولابن رضوان المصري) و[تراجم المؤلفين] صححها ونقلها إلى اللغة الإنجليزية، وكذلك «شرح أسماء العقار: تأليف الشيخ الرئيس موسى بن عبد الله الإسرائيلي القرطبي» والمستشرق ماكس مايرهوف قام بتحقيق مخطوط «كتاب مختصر الأدوية» لأحمد بن محمد الغافقي، واشترك مايرهوف مع يوسف شاخت في تحقيق «الكاملية في السيرة النبوية» لعلاء الدين ابن النفيس الطبيب العظيم مع ترجمة انجليزية ودراسة.[27]

ويعتبر المستشرق البريطاني «آبري. أ. ج» أحد المستشرقين الذين اعتنوا بالمخطوطات العربية له الكثير من المؤلفات والتحقيقات في التاريخ والأدب والتصوف، وله في هذا الصدد كتاب المخاطبات

---

(27) موسوعة المستشرقين ـ مرجع سابق ـ ص373 ـ 377.

للنفري. وترجمة كتاب التصوف وله ترجمة مخطوطة كتاب الطبخ لمحمد بن عبد الكريم البغدادي، ومن تصانيفه مجموعة من المخطوطات العربية والفارسية، والأخلاق والتصوف، فهرس المخطوطات العربية في مكتبة ديوان الهند وله: قائمة المخطوطات العربية في مكتبة تشستربيني، وفهرس المخطوطات العربية والفارسية في مكتبة مدرسة الدراسات الشرقية والافريقية، ورسالة عربية في السياسة، وملاحظات على مخطوطات للترمذي وله (معرض) كتب ومخطوطات المؤلفين العرب. وله أيضاً المخطوطات النادرة (صحيفة الأدب العربي).[28]

ومن المستشرقين الذين وجهوا عنايتهم بالمخطوطات العربية وتحقيقها ودراستها إلى جانب التاريخ والأدب العربي المستشرق الفرنسي «كازانوفا. ب.» ومن أعماله في هذا المجال: ترجمة كتاب الخطط للمقريزي بعد مقابلته على عدة مخطوطات وتحقيقه.

وله أيضاً مخطوط للأشعري عن الفرق في الإسلام، وعلم الفلك في رسائل إخوان الصفا، وجوهرة هارون الرشيد، والحروف العربية السحرية، وله مخطوط جديد عن الحشاشين.[29]

المستشرق التشيكوسلوفاكي «بتراستيك. ك» أحد المستشرقين المهتمين بالمخطوطات العربية والإسلامية وله: تحقيق المخطوطات الإسلامية في جامعة براتسلافاكيا، الدراسات العربية والإسلامية والسامية في تشيكوسلوفاكيا، وله دراسات في لفظ الغين، والراء بالعربية، ديوان الأحوص الأنصاري، المخطوطات العربية، اللغات

---

(28) المستشرقون ـ نجيب العقيقي ـ ج2، ص134 ـ 138.

(29) المستشرقون ـ نجيب العقيقي ـ ص219 ـ 220 ج 1.

السامية، النبأ في اللغة العربية. والكثير من الدراسات والأبحاث في الحقول الأدبية واللغوية العربية[30]

المستشرق الفرنسي «ليفي بروفنسال» من المستشرقين المشهورين بأبحاثهم في تاريخ المسلمين ومنها المخطوطات حيث حقق وثائق في: تاريخ الموحدين في المغرب، المخطوطات العربية في الرباط، كتاب أعمال الأعلام لابن الخطيب، تاريخ إسبانيا المسلمة، المخطوطات العربية في الاسكورال، وصفها بحسب مذكرات هارتفج دارينور مع تنقيحها وتجديدها، جزء 3 (علم الكلام، الجغرافيا، التاريخ). وله أيضاً مخطوطان جديدان لروضة لنسرين لابن الأحمر، وحقق مختارات من مؤرخي العرب في المغرب، وتعليق على مخطوط مزعوم من بنت ـ ليف بفاس، حقق مخطوطات جديدة من الذخيرة لابن بسام، حقق مخطوط من مكتبة الخليفة الحكم الثاني، ، ثلاث رسائل أندلسية في الحسبة: وثائق عربية غير منشورة في المغرب الإسلامي في العصر الوسيط، جمهرة أنساب العرب لابن حزم، وثائق عربية غير منشورة عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية في المغرب المسلم في العصر الوسيط[31].

فالمخطوطات العربية حظيت بحق بالاهتمام الكبير من قبل المستشرقين الغربيين وعنايتهم «وقد كان لنشر أمهات المخطوطات العربية في فرنسا خاصة وأوروبا عامة نشراً محققاً، أثر عميق في إحياء تراثنا وإظهاره للنور على أوسع نطاق ممكن للإفادة منه، وقد

---

(30) المرجع السابق، ج3، ص242.

(31) موسوعة المستشرقين ـ عبدالرحمن بدوي ـ ص354 ـ 357، انظر كذلك المستشرقون ـ نجيب العقيقي ـ ج1، ص293 ـ 299.

أدى ذلك إلى تطوير نهضتنا الحديثة ودفعها إلى الأمام أشواطاً بعيدة».

ويرى الأستاذ الرئيس محمد كرد علي أنه «لولا عناية المستعربين بإحياء آثارنا لما انتهت إلينا تلك الدرر الثمينة التي أخذناها من طبقات الصحابة، وطبقات الحفاظ، ومعجم ما استعجم، وفتوح البلدان، وفهرست ابن النديم، ومفاتيح العلوم، وطبقات الأطباء، وأخبار الحكماء، والمقدسي، والاصطخري، وابن حوقل، والهمذاني، وشيخ الربوة، وابن جبير، وابن بطوطة، إلى عشرات من كتب الجغرافية والرحلات التي فتحت أمامنا معرفة بلادنا في الماضي، وبها وقفنا على درجة حضارتها. ولولا احياؤهم تاريخ ابن جرير وابن الأثير وأبي الفداء واليعقوبي والدينوري والمسعودي وابن أبي شامة وابن الطقطقي وحمزة الأصفهاني وأمثالهم، لجهلنا تاريخنا الصحيح، وأصبحنا في عماية من أمرنا، ولو جئنا نعدد حسنات دواوين الشعر أو كتب الأدب والعلم التي أحيوها لطال بنا المطال».

ولقد قام المستعربون الفرنسيون بأنشطة أخرى أيضاً حول المخطوطات العربية وخدمتها، كنسخ مخطوطات معينة منها لأهميتها أو لتعذر الحصول عليها مباشرة، وقد كانوا يكلفون بهذه المهمة أحياناً بعض العرب من أمثال ميشيل صباغ المصري الذي ارتبط اسمه بمدرسة اللغات الشرقية بباريس منذ سنة 1810 إلى سنة وفاته 1816 بصفة (ناسخ للمخطوطات العربية المستعارة من المكتبات الأخرى من خارج فرنسا).[32]

---

(32) تاريخ الدراسات العربية في فرنسا ـ مرجع سابق ص89 ـ 90.

إن الاستشراق عمل في جوانب كثيرة، وكانت جهوده في التاريخ والآثار والمخطوطات الخ تستحق التقدير، إذ «ارتكزت على المعرفة المعمقة باللغات الكلاسيكية لآسيا (كالعربية، والفارسية، والتركية، والأوردو، والسنسكريتية، والصينية، الخ..). كما ارتكزت على فك رموز المصادر الأولية، وبالتالي فقد لزم كل شيء لتصنيف هذه المخطوطات، وطبع النصوص وترجمتها والتعليق عليها. وقد لزم اختراع أدوات للعمل بناء على قاعدة هذه المصادر. نقصد بهذه الأدوات: الفهارس البيبليوغرافية، من أجل مواصلة الدراسات إلى مدى أبعد. وقد لزم على مستشرقي تلك الفترة ايضا أن يرسموا الأطر التاريخية المتينة، وأن يؤسسوا من أجل ذلك علم التاريخ الوقائعي (أو الحدثي)والسلالي والحولياتي ولو على مستوى بدائي. واعتمدوا في ذلك على مناهج التاريخ النقدي التي كانوا بالكاد ابتدأوا يطبقونها على الغرب فمدوها على الشرق»[33].

وإذا كانت هناك بعض الهنات والأخطاء في هذا المجال، فربما جاءت لاختلاف الأفهام ونقص المعرفة في أغلبها، لكن الجهود التي تمت في مجال المخطوطات جاءت نتائجها باهرة، وأثرها عميق على ابراز تاريخنا العربي واظهاره وإحيائه، وهذا ما تحقق على يد بعض المستشرقين في مجال المخطوطات.

---

(33) وضع الاستشراق المختص بالإسلاميات: مكتسباته ومشاكله ـ مكسيم رودنسون (واخرون) كتاب الاستشراق بين دعاته ومعارضيه ـ دار الساقي ط ا 1994م ص 88 ـ 89.

الفصل الثاني

الدراسات الأدبية والتاريخية والعلمية العربية للمستشرقين

حظيت الدراسات الأدبية والتاريخية والعلمية باهتمام كبير وعناية فائقة عند الكثير من المستشرقين الأوروبيين. وقاموا بإعداد دراسات وبحوث كثيرة تكشف التاريخ العربي في جوانب كثيرة. وشملت التاريخ الأدبي والعلمي والفلسفي، والاقتصادي والاجتماعي والابستمولوجي والأنتربولوجي والسوسيولوجي وغيرها من الدراسات التي تعنى بالتاريخ العربي في مجمله.

كانت الخطوات الأولى لدراسة التاريخ العربي «دراسة اللغة» العربية باعتبارها المفتاح الأساسي لكشف هذا التاريخ، وكانت الجامعات الألمانية خاصة جامعة «هايدلبرغ» قد كثفت اهتمامها بدرس العربية وآدابها، فظهرت الثمار الأولى لذلك في عام 1582، مع صدور كتاب «الألفباء العربية» لعمانوئيل تريميلوس، تبعه صدور قاموس عربي، العام 1597، ثم كتاب «قواعد اللغة العربية» فترجمة لسورة يوسف وكتاب «الأجرومية». ويبدو لنا أن كلمة «مستعرب» (mozaraber)، كانت أول مصطلح، أشار إلى أولئك الأوروبيين،

الذين أخذوا يدرسون العربية وآدابها، لتتحول الكلمة لاحقاً، إلى «مستشرق» (orientalist) غير أن انعطافاً جديداً، بدأ يظهر في النصف الثاني من القرن السابع عشر، حمل على الرغم من شكلية إطاره، موضوعية أعلى. فقد صدرت ترجمة كتاب أبي الفدا، عن سيرة الرسول، على يد رايسكي في 1663، ثم ترجمت ثانية بالفرنسية في 1733 ثم في 1837. والجدير بالذكر ان الانعطاف المقصود هو ربط تاريخ الرسول، للمرة الاولى، بالدعوة الاسلامية. وفي مقدمة الكتاب جاءت صورة الرسول باعتباره رجلا عمليا، سعى الى توحيد بلاد العرب، التي ساد فيها الصراع والحقد والعصبية والقبلية، كما صور الرسول كأحد دعاة التوحيد، وان تجربته ((كانت نموذجية، قامت على السماحة والعفو والمصالحة، فهو درة ثمينة في تاريخ العرب)). وهذا ما جعل فولتير أحد كبار المفكرين، الذين مهدوا للثورة الفرنسية، يعيد النظر في تقويمه لشخصية محمد، ويعتبره مشرعا للمسلمين، داعيا الى المحبة والوئام والتسامح. كذلك، تحدث ديدرو عن العبقرية العربية، التي انتجت مثل هذا المفكر العظيم.[34]

بعد ذلك جاءت الرحلات الاستكشافية للعالم العربي مع تقدم بعض المستشرقين في اتقان اللغة العربية وبعض اللغات السامية القديمة، حيث سافر العديد من هؤلاء إلى الشرق بهدف التعمق في تاريخ العرب وثقافتهم وعاداتهم الاجتماعية والاقتصادية والبحث عن آثار الحضارات القديمة وتاريخ صعودها وانحطاطها الخ.

---

(34) صورة الشرق في عيون الغرب ـ مرجع سابق ص 30 ـ 38.

ويبين سجل الاعارات من مكتبة فايمار أن الشاعر الألماني جوته استعار أكثر من مرة كتاب «نيبور» «صور وصفية لبلاد العرب» المنشور عام 1772 وكذلك كتاب «نيبور» الثاني «رحلة وصفية لبلاد العرب وما يحيط به من بلدان» بجزأيه الأول والثاني، كان جوته مولعاً بتاريخ الشرق وبأدب الرحلات عنه، وقد أخذ الكثير من المعلومات عن أوصاف الرحلات ومن الوثائق الأخرى التي جاءت فيها عن العرب وتراثهم، وبفضل الرحالة الكثيرين الذين عكف الشاعر جوته على دراستهم، استطاع الأوروبيون قراءة بحوثهم التي تتناول الأقطار العربية.(35)

الدراسات اللغوية

وكما قلنا آنفاً إن الأسس التي قام عليها النشاط الاستشراقي كان دراسة اللغة العربية وآدابها، والإلمام بها إلماماً عميقاً حتى يستطيع أن يتغلب على العوائق التي تواجهه في جهوده وأعماله سواءً الأدبية أو التاريخية أو العلمية.

وقد امتدت جهود المستشرقين إلى عدة ميادين في مجال الدراسات اللغوية العربية، من أجل أن تفتح أبواب الثقافة والأدب وغيرها من المجالات الفكرية للحضارة العربية الإسلامية، ولم يسبق للمستشرق أن خاض غمار الاستشراق وتعمق في ميادينه المتعددة دون أن يمر بمرحلة تعلم اللغة العربية سواءً تعلم في مدرسة أو على يد شخص أو أكثر، أو نتيجة الاحتكاك والممارسة في البيئة العربية

---

(35) جوته والعالم العربي ـ مرجع سابق ص30 ـ 35.

والإسلامية التي يتقنها بعض المسلمين باعتبارها لغة القرآن الكريم.

وقد انصبت اهتمامات المستشرقين في الأغلب الأعم على دراسة اللغة العربية الفصحى، للاستفادة من نصوصها القديمة أو الحديثة بهدف التزود بمضامينها الأصيلة في التعرف على التراث العربي القديم، الذي كتب باللغة العربية الفصيحة، وكذلك دراسة اللهجات العربية المختلفة، لكونها لغة اشتقاقية من اللغة العربية الفصحى، ومدى اقترابها أو ابتعادها من هذه اللغة.[36]

ويعتقد بعض الباحثين أن المحاولات الأولى لتدريس اللغة العربية واللغات السامية الأخرى، كانت مع «فرانسوا الأول» (1553) الذي أنشأ معهداً بباريس، وأعد فيه منبراً لتدريس اللغة العربية واليونانية واللغات السامية الأخرى، وجدده بعد ذلك في بداية القرن السابع عشر «هنري السادس». وفي أواخر القرن السابع عشر بدأ تدريس اللغة العربية في الغرب يأخذ أبعاداً متقدمة، إذ اشتهر في جامعتي «اكسفورد» و«كمبردج» عدد من المتضلعين المتخصصين في العربية وآدابها أمثال «توماس جريوز» و«إبراهام ويلوك» و«صموئيل كلارك» ثم «بريان ولتون» ثم «دلي لفتوس» العلامة الهولندي المشهور. ودفع ذلك الجامعتين إلى تأسيس منصبين جديدين للغة العربية، وقبل أن ينقضي القرن الثامن عشر كانت جامعة «اكسفورد» قد أعدت مطبعة عربية لنشر المخطوطات العربية، وظهر أول كتاب في «قواعد اللغة العربية» لاربانيوس ـ ليدن سنة 1613.[37]

(36) تاريخ الدراسات العربية في فرنسا ـ مرجع سابق ص 145 ـ 150.

(37) الاستشراق وجه للاستعمار الفكري ـ مرجع سابق ص 27.

ثم ازدادت المنابر والمؤسسات الثقافية والإعلامية التي تعنى باللغة العربية في الجامعات والمعاهد الغربية وفي غيرها من المؤسسات الأهلية، ففي القرن التاسع عشر «أنشئت منابر لتدريس العربية في أشهر جامعات روسيا كجامعة قازان سنة 1807، وموسكو سنة 1911، وبطرسبرج سنة 1818، والمدرسة التهذيبية العليا سنة 1819، والكلية الأرمنية «لازارف»، ومعهد الرهبان الأرثوذكس بقازان ومنبره أنشئ بدلاً من منبر العربية بجامعة قازان، وقسم اللغة العربية بمعهد «بوليتكنيك» بلندن.

وفي إسبانيا يوجد المعهد الاسباني العربي للثقافة بمدريد، والجمعية الاسبانية للمستشرقين، وجمعية فرسان المستعربين ((موثارابيس))، والمعهد المصري للدراسات الاسلامية في مدريد».

وقال الأستاذ «لامنسون» (1857-1934): «إن تاريخ الأدب جزء من تاريخ الحضارة، فالأدب مظهر لحياتنا القومية» وكما قال العرب: الشعر ديوان العرب.

وقال «أنطوان مابيه» (1866-1936): «إن علم اللسان جزء من علم الاجتماع، واللغة العربية تستند -ككل ظاهرة اجتماعية- إلى سلسلة لا نهاية لها من وقائع الماضي، ومن ثم كان علم اللسان - كغيره من العلوم الاجتماعية الأخرى- علماً تاريخياً على نحوٍ ما»[38]

وقد تأثر الغربيون بالآداب العربية المختلفة عندما تعرفوا عليها وقرأوها قراءة متذوقة محايدة. فقد أثر الأدب العربي في الأدب الإنجليزي بقوة، وتشهد على ذلك الكثير من الأعمال الأدبية

---

(38) المرجع السابق ص 27 ـ 38.

الإنجليزية الكبيرة سواءً في مجال القصة أو الرواية أو المسرحية، فاطلع عدد منهم على أعمال وترجمات المستشرقين في الأدب العربي بعد أن احتل مكانة مرموقة ضمن الآداب العالمية، بعد جهود المستشرقين في التعريف به وإبرازه للغربيين، وعالجوا الكثير من الأعمال العربية المستوحاة، مثل قصص ألف ليلة وليلة، وقصة عنترة، ومحاكاة معلقة امرئ القيس. وقصة حي بن يقظان وغيرها من الأعمال الأدبية.[39]

ويذكر المستشرق الإيطالي «أماري» الذي كتب تاريخ المسلمين في صقلية، أنه لو زادت معرفتنا الكافية بالشعر العربي في صقلية لصار من المحتمل أن نكشف عن صلات وثيقة وقوية بينه وبين الشعر الإيطالي القديم الذي نشأ في أواخر العصور الوسطى، وأن الباعث على ممارسة الشعر في صقلية هو علم أهلها بأخبار العرب وشعرائهم. ويؤيد ذلك أن الشعر الشعبي المبكر في إيطاليا يتفق في أوزانه مع الشعر الشعبي في إسبانيا مما يدل على أن المؤثر واحد في الحالتين.[40]

وقد تأثرت الآداب الأوروبية في عمومها بالآداب العربية، لا سيما القصص الإسلامية، والأخيلة الشعرية. وغيرها من الآداب التي يزخر بها الأدب العربي، وهذه نتيجة لجهود المستشرقين في كشف التاريخ العربي ومنه الأدب والثقافة، واتجه كثير من

---

(39) نجيب العقيقي ـ المستشرقون ـ ج 2 ـ ص 38 ـ 39.
(40) حضارة الإسلام ـ سعيد عبد الفتاح عاشور ـ معهد الدراسات الاسلامية ـ القاهرة ـ ط 1987 ص 251.

الأوروبيين بعد ذلك إلى الأدب العربي للتذوق والكشف في مضامينه الثقافية الرفيعة، وما عرف عنه بخصوبته وإبداعه، وفي هذا يقول المستشرق الإنجليزي المعروف «هاملتون جب»: «إن خير ما أسدته الآداب الإسلامية لآداب أوروبا هي أنها أثرت بثقافتها وفكرها العربي في شعر العصور الوسطى ونثرها».

والمعروف عن الشعر العربي أنه بلغ درجة فائقة من السمو ودقة الأحكام وسعة الانتشار جعلت بعض الكتاب يقررون أن العرب وحدهم قرضوا من الشعر ما لم تقرضه أمم العالم مجتمعة، حتى بلغ من حبهم للشعر في بعض الأحيان أنهم ألفوا بعض كتب في التوحيد والفلسفة والجبر نظماً. وسرعان ما ظهر أثر الشعر العربي في الأشعار الأوروبية، حتى أن دانتي أكد «أن الشعر الإيطالي ولد في صقلية حيث كان للعرب حضارة زاهرة».[41]

لقد كانت العلوم العربية المختلفة، ومنها الآداب العربية قد لاقت اهتمام الباحثين والمستشرقين الغربيين طوال قرون عديدة، وتأسست معاهد ومراكز ومدارس كثيرة لهذا الغرض، ولأهداف متعددة، لكننا في تركيزنا للأعمال العلمية، نجد أن الجهود في هذا المضمار كانت رائدة وقيمة «وفي هذا السبيل أسسوا المطابع، وأنشأوا المكتبات، وألفوا الجمعيات، وأقاموا المؤثرات، وأصدروا المجلات، وجمعوا المخطوطات، ونشروا نفائس الكتب، وعلقوا عليها الحواشي وذيلوها بالفهارس المختلفة للأسماء والموضوعات والأمكنة، ثم كتبوا البحوث القيمة في تحقيق الألفاظ، وتحرير

---

(41) المرجع السابق ص260.

الأصول وتصحيح الأخطاء، وكشف المجهول على الأسلوب العلمي الصحيح، والمنهاج المنطقي الحديث، فكانوا في ذلك قدوة لمعلمي اللغة ومؤرخي الأدب من العرب، في تحضير المادة، وتنظيم البحث، وتوخي الدقة، وتحري الصواب، وتقصي الحقائق».[42]

في القرن الثامن عشر الميلادي بالتحديد وهي فترة ما سمي عصر النهضة الأوروبي والتنوير الفكري المستقل عن تأثيرات الكنيسة وحساباتها الدينية والتبشيرية ظهرت كتابات وأبحاث جادة ومنصفة للعرب وتاريخهم وآدابهم. ويشير بعض الباحثين عن هذه الدراسات، ما ألفه أستاذ اللغة العربية في كمبردج ببريطانيا «س. أوكلي» كتاب تاريخ الساراتيين [العرب المسلمين / خ. ح] ويعتبر أول كتاب علمي نشر في المملكة المتحدة عن (ديانة المسلمين)، ثم ظهرت بعض الكتابات الجادة عن العرب وتاريخهم وأدبهم، وصحبه تفتح على الشرق عموماً وسحره وموضوعاته بانجذاب شديد.[43]

ومن هؤلاء الذين اهتموا بالأدب العربي تاريخاً ولغة «يوهان بورخارت» عضو جمعية بازل العلمية الذي زار بعض البلاد العربية، «وبعد عودته إلى انجلترا درّس في جامعتي لندن وكمبردج اللغات الشرقية والعلوم الإسلامية، وتخصص بالأدب العربي، ثم عاد إلى سوريا، فواصل دراسة اللغة والأدب العربيين في حلب لفترة من

(42) تاريخ الأدب العربي ـ احمد حسن الزيات ـ ط 24 ـ لم يذكر اسم ناشر الكتاب أو تاريخ نشره ـ ص 513 ـ 514.

(43) الإسلام والمسيحية: تأليف: اليكس جورافسكي ـ ترجمة د/ خلف محمد الجراد ـ كتاب عالم المعرفة. سلسلة كتب ثقافية. المجلس الوطني للثقافة والآداب والفنون ـ الكويت نوفمبر 1996 ص 96.

الوقت، حتى أتقن اللغة العربية اتقاناً تاماً وكذلك اللهجات الدارجة، وانصب اهتمامه بعد ذلك على تاريخ العرب والمسلمين وتاريخ الجزيرة العربية وجغرافيتها، وقد انتحل اسماً مستعاراً في رحلاته هذه وهو «ابراهيم بن عبد الله» وأحياناً شخصيات أخرى عندما عبر الصحراء العربية في بعض البلاد العربية، وعاش في الحجاز، وقضى فترة مع البدو في الصحراء، وعاش تقاليدهم وعاداتهم، وامتدح حياتهم وأخلاقهم وحسن تعاملهم "[44]

وإذا جئنا إلى مؤلفات الدراسات اللغوية حول العربية وآدابها مع اللهجات العامية نجد أن المستشرقين الفرنسيين الأكثر اهتماماً ـ مع المستشرقين الألمان ـ في هذا المضمار. «ويستطيع المرء القول إن أكثر أنواع الدراسات العربية تطوراً في فرنسا هي هذه الدراسات اللغوية. وسيرد في قائمة هذه الدراسات، هنا، ما يدل على مثل هذا التطبيق الذي يتناول العربية من خلال دراسة نحوها القديم والحديث، ودراسة لهجاتها الحديثة في مختلف أنحاء الوطن العربي، ووضع الخرائط أو الأطالس اللغوية، ودراسة اللغة العربية ضمن أسرة أخواتها من اللغات العربية التي أطلق عليها المستشرقون خطأ اسم اللغات (السامية)، ودراسة أصوات العربية وتطور الدلالة فيها، ودراسة البنية اللغوية العربية على وجه العموم. ومن أبرز هذه الدراسات:

نشر (ديلابورت) في الجزائر سنة 1836، كتاباً بعنوان: بحوث في اللغة العربية.

---

(44) صورة الشرق في عيون الغرب ـ مرجع سابق ص 52 ـ 54.

ونشر رينان كتابه المشهور: تاريخ اللغات «السامية»، في جزئين في سنتي 1853و 1862، ويتناول فيه اللغة العربية تناول مقارنة.

ونشر رينو كتاباً بعنوان: اللغة العربية في سورية، سنة 1857.

وألف مونك دراسة بعنوان: تأثير اللغة العربية وآدابها في اللغة العبرية بعد التوراة، ونشرها بباريس سنة 1857.

ونشر بارتيليمي سنة 1905: رسالة في لغة حلب العامية. وفي سنة 1906 نشر: نبذة عن لهجة القدس.

وأصدر كانتينو، وهو من أبرز دارسي اللهجات العربية من المستعربين في النصف الأول من القرن العشرين، ويعد رائداً في (الجغرافية اللغوية العربية وأطالسها): لهجة عرب تدمر، في جزئين صدرا ضمن منشورات المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق، بيروت سنة 1934.

كما نشر أيضاً كتاباً بعنوان: بعض لهجات بدو العرب في الشرق، ضمن منشورات كلية الآداب بالجزائر سنتي 1936 ـ 1937.

ونشر أيضاً كتاباً بعنوان: اللهجات العربية في حوران (مع ملحق بخرائط جغرافية للمناطق المدروسة)، ضمن منشورات الجمعية اللغوية بباريس سنتي 1940و 1946.

كما نشر أيضاً كتاباً بعنوان: محاضرات في علم الصوت العربي في الجزائر سنة 1941.

ونشر هنري فليش، سنة 1947، كتاباً بعنوان: مدخل إلى دراسة اللغات السامية (كذا)، في باريس.

كما نشر أيضاً كتاباً بعنوان العربية الفصحى (دراسة للبنية

اللغوية) في بيروت سنة 1956، ثم أعاد طبعه سنة 1968» .[45]

ومن المستشرقين الذين أسهموا اسهاماً رائداً في مجال الدراسات الأدبية واللغوية والمعجمية العربية، ولهم بصماتهم الكبيرة والمرجعية في هذا الجانب، المستشرق الألماني (كارل بروكلمان) صاحب كتاب «تاريخ الأدب العربي» بأجزائه الخمسة، والمرجع الذي لا غنى عنه للباحثين في هذا التخصص الهام في فكرنا وأدبنا العربي.

وقد اشتهر بروكلمان بجم نشاطه الغزير الذي اتصف بالموضوعية ـ في أغلبها ـ والعمق والشمول والجدة، مما جعله مرجعاً في التاريخ الإسلامي والأدب العربي، ولبروكلمان الكثير من المؤلفات والتراجم، وتحقيق المخطوطات في المجال الأدبي ـ بعد كتابه الضخم (تاريخ الأدب العربي) مؤلفات ابن المقفع في البيان والبلاغة، وكتاب عيون الأخبار لإبن قتيبة في أربعة أجزاء، ومختصر تاريخ الآداب العربية، وقواعد اللغة العربية لسوسين، وتاريخ الآداب النصرانية في الشرق، وملاحظات شتى على تاريخ الآداب العربية، واللغات المتشابهة في اللغات السامية، والجوهري وترتيب الحروف الهجائية، وأسماء التصغير والتكبير في اللغات السامية، وملاحظات شتى في اللغة الكنعانية، في تصنيف كتاب العربية فقهاً وأدباً، وله اسهامات كبيرة في دائرة المعارف الإسلامية خاصة في الدراسات التاريخية والأدبية.[46]

---

(45) محمود المقداد ـ تاريخ الدراسات العربية في فرنسا ـ مرجع سابق ص 154 ـ 160.
(46) نجيب العقيقي ـ المستشرقون ـ ج 2 ـ ص 424 ـ 430.

من المستشرقين المبرزين في ميادين الأدب العربي واللغات السامية، المستشرق الفرنسي «غيوم بوستل» الذي أجاد العربية، وعدد من اللغات الشرقية، وله دور بارز في ميدان الدراسات العربية في عصر النهضة، ويرى غوستاف دوغا الذي أرخ لمستشرقي أوروبا عموماً أنه أول مستشرقي فرنسا على الاطلاق وفاتحة عهد جديد بما حاز من معرفة باللغات الشرقية لم تكن لعالم باحث قبله.

وقد كان بالفعل فريد في عصره ووحيد في دهره في الالمام باللغات الشرقية ـ ومنها العربية ـ ويذكر المستشرق النمساوي يوسف جبرا أن حياة بوستل حافلة بالعجائب والمغامرات والآراء الغريبة، ويذكر ميله للإسلام إذ كان يقول واعظاً «ينبغي لكل إنسان أن يكون تابعاً لدين صالح، ومعنى ذلك أن يكون له دين مؤلف من مميزات الأديان الأخرى لا سيما من الدين الإسلامي، ففيه أجود الآراء وأحسنها».

ترك بوستل آثاراً عديدة ذات أهمية، وخاصة في مجال الدراسات العربية إلى جانب تعليمه العربية في المعهد من سنة 1538 إلى سنة 1543.

ومن أبرز هذ الآثار: كتابه (النحو العربي) وكتاب (الحروف الهجائية في العربية) واللغات السامية، كما له الكثير من المحاضرات والدراسات في اللغات السامية.[47]

ومن المستشرقين البارزين في الدراسات العربية وأدبها وغيرها من المجالات الأخرى المستشرق الإنجليزي «هاملتون جب» الذي

(47) تاريخ الدراسات العربية في فرنسا ـ مرجع سابق ص 102 ـ 103.

نال شهرة واسعة في عصره يختلف البعض في تقييمها، لكن «جب» يعتبر من المتخصصين في اللغات السامية ومنها العربية، وأصبح بعد ذلك أستاذاً للغة العربية في جامعة لندن.

وفي عام 1926 ـ 1930 عين بلقب READER في تاريخ العرب والأدب العربي في جامعة لندن. ولما توفي سير توماس أرنولد في 1930 خلفه على كرسي اللغة العربية في جامعة لندن (ومقره في مدرسة اللغات الشرقية). كما خلف سير توماس أرنولد كمحرر بريطاني «لدائرة المعارف الإسلامية». وفي عام 1945، كان أحد المشرفين الأوائل على الطبعة الثانية من دائرة المعارف الإسلامية، ثم اعتزل العمل بها في 1956. واستمر في كرسيه بجامعة لندن حتى 1973 ـ حيث صار أستاذاً للغة العربية في جامعة أكسفورد خلفاً لمرجوليوث، ثم زميلاً في كلية سانت جون بأكسفورد.

وقد تميّز «جب» بتعدد الموضوعات التي كتب حولها، وله العديد من الأبحاث والمؤلفات منها في اللغة العربية، والأدب العربي، ودراسات في الأدب العربي المعاصر، له كتاب: شاعر ونحوي عربيان، التراجم الأدبية الإسلامية، المدخل إلى تاريخ الأدب العربي، وله الكثير من الدراسات العربية الأخرى في التاريخ والقانون والفلسفة والتراجم وغيرها وقد عين عضواً في المجمع العلمي بدمشق والمجمع اللغوي في القاهرة.[48]

ويجب ألا ننسى مستشرقون كبار كانت لهم أدوار بارزة في

---

(48) طبقات المستشرقين ـ د/ محمد عبد الحميد صالح حمدان ـ مكتبة مدبولي ـ القاهرة ـ ص111 ـ 112.

اللغة العربية وآدابها، وأسهموا اسهاماً كبيراً من أمثال المستشرق الفرنسي «دي ساسي» والبريطاني «دافيد مرجليوث» والهولندي «توماس فان اربن» والألماني «أدولف فردريش».

الدراسات التاريخية

جاءت الدراسات التاريخية للمستشرقين للعرب وأحوالهم وأنماط معيشتهم في المرحلة التالية، بعد دراسة اللغة العربية وآدابها بالنسبة لأكثر المستشرقين الذين عنوا بهذه الدراسات، وكانت مدار اهتمامهم الكبير لكشف تاريخ العرب وحضارتهم قبل الإسلام وبعده.

وتعتبر الدراسات التاريخية والبحثية في التاريخ العربي أكثر الدراسات شمولاً وعمقاً في كتابة هؤلاء.

وإذا جئنا إلى الدراسات المتعلقة بالحضارات وتعاقبها وتاريخ نشأتها، نجد أن المستشرقين أسهموا في هذا الجانب اسهاماً رائعاً لكشف التاريخ العربي وابراز مكوناته المعبرة عن سمات التحضر والثقافة والمدنية، وهذا الاسهام لا ينتقص منه بعض الأخطاء أو السلبيات في الاستقراء والبحث والنتائج في مجال الدراسات التاريخية للعرب وتاريخهم. ومع ذلك فإن «بحوثهم في مجالات التاريخ والجغرافية والفكر والمجتمع والسلطة، وعلاقات الشرق والغرب، رائدة لا غنى عنها حتى في أي بحث علمي بتلك المسائل». [49]

---

(49) الاسلام المعاصر ـ نظرات في الحاضر والمستقبل ـ د/ رضوان السيد ـ دار العلوم العربية ـ بيروت ط ١ ص 127.

ومن كتابات المستشرقين وأبحاثهم عن العرب قبل الإسلام تؤكد أنهم عرفوا في جاهليتهم أنظمة سياسية عديدة، قد لا تتطابق مع النظم السياسية المعاصرة، لكنها بمقاييس تلك المرحلة تعد نظماً سياسية، وبمستويات مختلفة وبرصيد تاريخي عميق، ووفق تطور تلك المجتمعات وظروف النشأة وعوامل الاستقرار. ومن هنا، فإن الدول التي قامت في الجزيرة عرفت الاستقرار والازدهار وحققت تاريخاً مزدهراً تحدث عنه المؤرخون والباحثون مثل الدولة المعينية والدولة السبئية، والدولة الحميرية الأولى والثانية، كما اكتسبت الدول في شمال الجزيرة العربية أيضاً حضارة رائعة، لا تزال آثارها ونقوشها باقية مثل دولة الأنباط والغساسنة وتدمر وكندة وغيرها من الدول، وجذور هذه النظم ـ كما يقول إبراهيم الحاج ـ تمتد بعيداً في التاريخ، لأن الجنوب قد عرف استقرار أهله وسكانه على أرض معطاء تشدهم إلى النبات، نتيجة عوامل مناخية وطبيعية، وكانت حصيلة هذا الاستقرار أسبقية مدنية تخطت معالمها سائر المناطق في الجزيرة، ونظماً سياسية ازدهرت وتقدمت تاريخياً على نظم الشمال والوسط.[50]

وقد كشف المستشرقون في أبحاثهم التاريخية عن جذور هذه النظم التي تمتد بعيداً في التاريخ، حيث عرف جنوب وشمال الجزيرة العربية حياة الاستقرار والثبات نتيجة لعوامل تاريخية ومناخية وطبيعية، وكانت حصيلة هذا الاستقرار أسبقية مدنية وحضارية عريقة

---

(50) بحث العرب والسياسة مناقشة لإشكالية التكوين، التأزم، الخلل ـ عبدالله علي العليان (و آخرون) كتاب الأنصاري وسوسيولوجيا الأزمة ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت ط 1 2000 ص 153.

تخطت معالمها الكثير من المناطق في العالم آنذاك، فقد ازدهرت، وتقدمت تاريخياً بصورة رائدة. أما الدلائل التي تثبت إقامة مثل هذه الدول والنظم فهي النقوش التي عثر عليها المستشرقون، والتي نقشت على ألواح معدنية أو حجرية، منها النقوش التاريخية التي تشير لأخبار معركة أو تنبئ عن انتصار، ومنها القوانين التي نقشت على أعمدة في مداخل الهياكل، وتضمنت إنذارات للشعب تحذره من القيام بأعمال معينة وإلا تعرض لعقوبات محددة، وهي ما يعرف في عصرنا بقوانين الشرطة.

ومن الدول التي ازدهرت في الجزيرة العربية وكشف عنها المستشرقون في الجنوب أيضاً، وهي الأسبق في النشأة فقد كانت الدولة المعينية، والدولة السبئية، والدولة الحميرية الأولى والدولة الحميرية الثانية، أما في الشمال فقد كانت هناك دولة الأنباط، ومملكة تدمر، والغساسنة، واللخميون.[51]

وقد عبر عن هذا المستوى الحضاري تاريخياً الكثير من المستشرقين، ومن هؤلاء الذين كتبوا عن هذا الكشف التاريخي الحضاري للعرب في جنوب الجزيرة العربية المستشرق الأمريكي «وندل فيلبس» رئيس البعثة إلى البلاد السعيدة الذي قال «لقد كشف لنا بطن الأرض عن حضارة اتضح لنا منذ البداية أنها تساوي حضارة الفراعنة والإغريق والرومان في عظمتها إن لم تفقها جميعاً» مرد هذه العظمة يعود إلى أن بلاد «اللبان والبخور» كانت هي ذاتها «طريق

---

(51) الواقعية السياسية، نموذج تطبيقها: الجزيرة العربية قبل الإسلام ـ إبراهيم الحاج ـ دار الفكر اللبناني ط ا 1992 ص 111.

العطور» إلى الهند، الأمر الذي ساعد على اتساع نطاق تجارتها مع مصر وسوريا وبابل والحبشة فعاشت حياة الترف والرخاء وتدفقت عليها الأموال والثروة. فازدهرت دولها وتقدمت وبقيت مسيطرة على التجارة العالمية إلى حوالي منتصف القرن الأول قبل المسيح. حيث بدأ تأخر الحضارة اليمنية وزوالها، وتبع انهيارها زوال حضارة الجنوب ككل. «فالتفاعل الحضاري السائد في المراحل الأولى من العصر الجاهلي بدأت تخف جذوته وتذبل أزاهيره ونتج عن ذلك غموض وانقطاع»[52].

وتعد رحلات المستشرق الألماني «ماكس فون أوبنهايم» في بداية القرن الماضي من أهم الرحلات التاريخية، فقد اهتم أوبنهايم بالشرق منذ صباه وتأثر بقصص ألف ليلة وليلة، ودرس اللغة العربية وآدابها والعلوم الإسلامية المختلفة «إلى جانب اهتمامه بالحضارات العليا، في بابل وأشور، وأصبح عالماً أثرياً، ومستشرقاً مشهوراً. وكانت نتيجة رحلاته العديدة، إلى شمال الجزيرة العربية، كتابه الذائع الصيت «البدو» الذي نشره في أربعة مجلدات ضخمة، عالج فيه خصائص المجتمع البدوي في الجزيرة العربية، وأسلوب الحياة الرعوي، من النواحي الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، ثم بحث توزيع القبائل العربية، وانتشارها في كل من العراق وسوريا والأردن وسيناء والحجاز، وديار كل قبيلة منها، واتجاه هجرتها، ومناطق تجوالها. كما وضع مخططات دقيقة لأنساب القبائل العربية، وعلاقاتها السياسية والقرابية، والصراعات الدائرة بينها. ويعتبر كتاب

(52) المرجع السابق ـ ص 127 ـ 128.

«البدو»، عملاً أنثروبولوجياً موسعاً عن القبائل العربية في شمال الجزيرة» .[53]

وإذا عرجنا قليلاً إلى عمان في تاريخها القديم نجد أن الدراسات التاريخية والاكتشافات الأثرية للمستشرقين في العديد من مناطق عمان أفرزت عن تاريخ عريق موغل في القدم للإنسان العربي في المنطقة، وقد كان حالها مثل بقية مناطق الجزيرة العربية والخليج العربي مجهولاً تماماً. . . وبعد مجيءالبعثات الأثرية والرحلات الاستكشافية للمستشرقين كانت النتائج باهرة ومشجعة على صعيد الدراسات التاريخية والأثرية ـ وهذا ما حصل كذلك في بلاد العراق والشام أيضاً ـ وتعد أعمال الاكتشافات والتنقيبات للمستشرقين وغيرهم عن كشف تاريخ عمان القديم، حيث ثبت بصورة قاطعة عراقة وأهمية التاريخ العربي القديم عامة، ودوره العظيم في بناء الحضارة الإنسانية ودعم مقوماتها بعناصر التواصل والدوام.

وإذا كانت الاشارات النصوصية المسمارية تؤكد على أهمية مجان ـ الاسم القديم لعمان ـ في تصدير النحاس لبلاد الرافدين، فإن التاريخ والحضارة العمانية القديمة يشكلان جزءاً من النشاط التاريخي والحضاري العام لمنطقة الخليج العربي، والذي لعب الطريق القديم بمراكزه الحضارية دوراً بارزاً في صياغة مكوناته.[54]

ومن ضمن ما أظهرته البعثة الأمريكية ـ الاستشراقية ـ لدراسة

---

(53) صورة الشرق في عيون الغرب ـ مرجع سابق ص 68.

(54) عمان في التاريخ ـ الباب الثاني ـ عمان في العصور التاريخية القديمة ـ المرجع حصيلة الندوة الفكرية التي عقدت في مسقط 1994 ـ طبع بدار اميل للنشر ـ لندن ص 70 ـ 71.

الإنسان [حفريات ظفار] 1952 العلاقة التجارية والصلات التاريخية بين مصر الفرعونية وحضارة ظفار التي كانت مزدهرة بتجارة اللبان آنذاك، «حيث وجدت أدلة أثرية تشير إلى وجود علاقات بحرية مزدهرة بين الفراعنة في مصر وبين حضارة ظفار في سلطنة عمان والتي أطلقت عليها النصوص الفرعونية بلاد (بونت) ـ كما تقول بعض المصادر التاريخية ـ وإن أقدم ما ورد مسطراً على الآثار المصرية وصلتها ببلاد (بونت) هي البعثة التي أمر بإرسالها الملك ساحورع من الأسرة الخامسة في منتصف الألف الثالثة قبل الميلاد إلى تلك البلاد، على أن أشهر رحلات الفراعنة إلى ظفار تلك الرحلة التي أمرت الملكة (حتشبسوت) منذ بداية الألف الثانية قبل الميلاد تحت قيادة وزيرها، ونقشت مناظرها على جدران معبد الدير البحري في طيبة والتي عادت من عمان محملة بخيرات بونت (ظفار) من بخور وعطور وأخشاب وحيوانات»[55].

من الملاحظات الطيبة عن تاريخ العرب في شرق أفريقيا إشادات بعض المستشرقين بالمؤثرات الحضارية لعرب عمان في شرق أفريقيا سواءً من حيث أساليب الحياة أو نشر الثقافة العربية الإسلامية، أو حتى ملامح المدن، ويعد «دورات باربوسا» [Barbosa] واحداً من هؤلاء، حيث زار الساحل الأفريقي 1518 وسجل اعجابه بما شاهده من مدن عامرة ومجتمعات متحضرة، ومما قاله باربوسا «ما إن وصلت مراكب فاسكو ديجاما إلى سفالة

---

(55) التاريخ البحري العماني ـ عبدالله علي العليان ـ بحث مقدم الى ندوة التراث العماني بجامعة آل البيت ـ المملكة الأردنية الهاشمية أبريل 2001 ـ سيصدر في كتاب عن الجامعة العربية نفسها قريبا.

شرق أفريقيا حتى فوجئت بما لم يكن متوقعاً حيث البحارة يضربون عباب البحر والمرافئ تزدحم كخلايا النحل ومدن ساحلية غاية في التقدم، ورجال لديهم دراية عالية بعبور المحيط ومعرفة دقيقة بمرافئه ولديهم خرائط متقنة لا تقل فائدة عما في يد الأوروبيين ومدن عامرة لا تقل نشطاً عن مدن البرتغال وتجارة بحرية نافعة كالذهب والعاج والخرز والجلود والأقمشة القطنية. . .» لقد وجد البرتغاليون عالماً تجارياً أوسع من عالمهم وأكثر ثراءً من بلادهم حتى السفن العربية كانت أكبر من سفن البرتغال.[56]

كما لقيت الدراسات التاريخية أهمية كبيرة بين المستشرقين الفرنسيين، وتشمل هذه الدراسات تاريخ الشخصيات والأحداث والنظم السياسية والاقتصادية والتشريعية للعالم العربي. وقد دفع هذا المستشرقين إلى الاسهام في كشف هذا التاريخ لمعرفة العرب معرفة دقيقة ومباشرة ومن أبرز الدراسات للمستشرقين الفرنسيين: -

1 - كتب جان جاك سيديو بحثاً بعنوان: خلاصة تاريخ العرب. وقد ترجمه عادل زعيتر إلى العربية بعنوان: تاريخ العرب العام.

2 - وألف رينو: فتوح العرب في فرنسا، سنة 1836.

3 - وألف ديفرجيه: تاريخ العرب في الجاهلية.

4 - وألف لوبون: حضارة العرب، باريس 1884، وترجمه إلى العربية بالعنوان نفسه عادل زعيتر.

5 - وألف أرمان دوبرسفال: باكورة تاريخ العرب، في ثلاثة أجزاء، سنة 1847

---

(56) عمان في التاريخ - مرجع سابق (التفوق البحري العماني)، ص 416.

6 ـ وكتب ديموميين: تاريخ بني الأحمر ملوك غرناطة، باريس 1898. كما كتب أيضاً: الشام في عهد المماليك، باريس سنة 1923.

8 ـ ونشر بيريه سيرة بعنوان: حياة الحجاج بن يوسف الثقفي، باريس سنة 1902.

9 ـ وألف هوار: تاريخ بغداد في العصر الحديث، سنة 1901. كما نشر أيضاً كتاباً بعنوان: تاريخ العرب، في جزءين، باريس سنتي 1912 و1913.

11 ـ ونشر فييت بحثاً بعنوان: مصر العربية من الفتح العربي إلى الفتح العثماني، باريس سنة 1932.

12 ـ ونشر هنري دوسو بحثاً بعنوان: الطوبوغرافيا التاريخية لسورية، سنة 1932.

14 ـ ونشر ليفي ـ بروفنسال كتاباً بعنوان: الحضارة العربية في إسبانيا، القاهرة سنة 1938. كما نشر أيضاً دراسة بعنوان: التاريخ السياسي لإسبانيا في عهد الخلافة، سنة 1950.

15 ـ ونشر جورج مارسيه كتاباً بعنوان: فن العمارة الإسلامية في الغرب، سنة 1954.[57]

ومن المستشرقين البارزين في مجال الدراسات التاريخية للعرب والإسلام المستشرق الإيطالي «كارل تللينو» الذي انتخب عضواً في المجمع العلمي في دمشق، والمجمع اللغوي في القاهرة منذ تأسيسهما ومن آثار تللينو: تكوين القبائل العربية قبل الإسلام،

---

(57) تاريخ الدراسات العربية في فرنسا ـ مرجع سابق ص 176 ـ 177.

ومشاهد من الحياة المصرية، ونشر كتاب البيان لابن رشد، وكتاب عن الكتابات العربية على القبور في جنوبي ايطاليا، ودوّن بالعربية تاريخ علم الفلك عند العرب في القرون الوسطى، وله تاريخ الأدب العربي وكتاب التنجيم الشعبي عند العرب، شعر ابن الفارض والتصوف الإسلامي، دراسة المفردات والحركات العربية، تاريخ اليمن قبل الإسلام، تاريخ مسلمي صقلية، وكتب في دائرة المعارف الإيطالية.

شارك في دائرة المعارف الإيطالية عن بعض القضايا والأعلام العرب والمسلمين، وكذلك شارك في دائرة المعارف الإسلامية.

وقد عني تللينو ببلاد العرب بعد الإسلام أيضاً فتناول تاريخها وجغرافيتها، وثقافاتها وأسماءها وتراجم رجالها وفهارس مخطوطاتها، وقامت زوجته بعد وفاته بجمع كتاباته الكثيرة المنشورة وغير المنشورة، وطبعتها في ستة مجلدات منها تاريخ العرب قبل الإسلام، وعلم الفلك والتنجيم والجغرافيا عند العرب، والأدب واللغة والفلسفة، وتاريخ آداب اللغة العربية وغيرها من المؤلفات.[58]

ومن المستشرقين الذين برزوا في الدراسات التاريخية المستشرق البريطاني إدوارد بوكوك، إذ كان فارساً في اللغة العربية، واهتم بالتاريخ العربي وأحداثه، ومن آثاره: كتاب [مختصر تاريخ الدول] لابن فرج العبري، ويحتوي على بعض المعلومات المأخوذة من كتاب [طبقات الأمم] لصاعد الأندلسي والمتعلقة بتاريخ العرب في

---

(58) نجيب العقيقي، المستشرقون ج 1، ص 432 ـ 434.

الجاهلية، وله كذلك كتاب محقق بعنوان [لامية العجم للطغرائي] وكتاب آخر بعنوان [نموذج من تاريخ العرب](59)

ويعترف الكثير من المستشرقين بفضل بوكوك في دراساته ومخطوطاته التي اقتنتها مكتبة بودلي في اكسفورد وبلغت 420 مخطوطة.

ويعتقد البعض أن القرن السابع عشر يعد عصر «تطور في تاريخ دراسة العلوم العربية في بلاد الانجليز. ويرجع هذا الشغف بالدراسات العربية إلى عوامل عدة منها ولا شك العامل اللاهوتي المهم، إذ أدرك الناس في هذا الوقت ما هناك من صلة متينة بين العربية والعبرية فرجوا أن تؤدي دراسة العربية إلى إنارة كتاب العهد القديم من التوراة، والأهم من ذلك نمو الشعور بأهمية الثقافة العربية العامة والتاريخ العربي. وقد شهد القرن السابع عشر الميلادي نهضة علمية من الدرجة الأولى تمخض عنها اهتمام جديد باللغات والدراسات الأدبية، فكان من الطبيعي أن ينتبه طلاب تاريخ الجنس البشري ومدنيته إلى الدور العظيم الذي يلعبه العالم العربي في هذا الموضوع، وأن يحاولوا ضم ذلك إلى منطقة معلوماتهم. فكتب كل من بدول وكاستل وبوكوك مقالات عن الأهمية العامة للغة العربية، والحاجة إلى دراستها من قبل الطليعة المتعمقين في أبحاثهم»(60).

ومن المستشرقين الذين كان لهم اسهامات كبيرة في التاريخ العربي والآداب العربية المستشرق الفرنسي «هيار كليمان» وكان يلقي

---

(59) موسوعة المستشرقين ـ مرجع سابق ـ ص90 ـ 93.

(60) المستشرقون وتوجيه السياسة التعليمية في العالم العربي مرجع سابق ص 129.

محاضراته في تفسير القرآن باللغة العربية الفصحى، وكان عضواً في العديد من الجمعيات والمؤسسات العلمية العالمية، ومنها المجمع العربي العلمي بدمشق.

من آثاره: كتابات عربية في آسيا الصغرى، تاريخ بغداد في العصر الحديث، تاريخ الآداب العربية، تاريخ العرب في جزأين، تنسيق الحروف الساكنة عند العرب في القرن الثامن، كتابات عربية في القيروان والمهدية، وثائق عربية وبيزنطية من سوريا، القبائل العربية بين النهرين، العرب في سوريا قبل الإسلام، كتب الطب العربي، تاريخ الحضارة، كتاب المواعظ والاعتبار للمقريزي، البرامكة في نظر المؤرخين العرب والفرس، نظام المياه في الشرع الإسلامي، تجارب الأمم لابن مسكويه، وضع المرأة في الإسلام وتطوره، دراسات نقدية لتاريخ العرب في إسبانيا.[61]

ومن المستشرقين الذين أسهموا بأبحاثهم في التاريخ العربي المستشرق الألماني «رتر هلموت»: حملت رسالته للدكتوراة عنوان [كتاب عربي في علم التجارة] وقد نشرت في 1917.

ومن آثاره: دراسات موصلية حملت عنوان [السفن العربية في الفرات ودجلة] وتلاه ببحث [أربعون أغنية شعبية عربية]، حقق كتاب [مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري، السوانح لأحمد الغزالي]، كتاب [غاية الحكيم] للمجريطي، أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني، مشارق أنوار القلوب ومفاتيح اسرار الغيوب، تأليف عبد الرحمن بن محمد الأنصاري، دراسات في تاريخ التقوى

---

(61) نجيب العقيقي- المستشرقون ج1 ص 211-216.

الإسلامية للحسن البصري، طبقات ابن سعد، اشترك مع فلتسر في نشر رسالة الكندي [في دفع الأحزان] وله الكثير من الأبحاث والدراسات الأخرى.[62]

الدراسات العلمية

تعتبر الدراسات العلمية للمستشرقين في كشف التاريخ العربي، الأكثر أهمية ومعرفية باعتبارها أبرزت نموذجاً علمياً لقدرات الإنسان العربي وابداعه في شتى المعارف والعلوم الإنسانية، وتدحض من جانب آخر بعض الافتراءات ـ من جانب بعض المستشرقين الأيديولوجيين ـ التي حاولت أن تعطي انطباعاً سلبياً عن العقل العربي، وأنه لا يملك العطاء العلمي والمعرفي الابداعي فهو عقل بيان الخ.

ولن نتوقف طويلاً أمام هذه الفرية ـ غير العلمية ـ والتي أدحضها بعض المستشرقين أنفسهم، وتكفلوا بالرد على هذه الافتراءات بالطرح العلمي وتبيان النماذج الصارخة على قدرات العرب العلمية، وتاريخهم الحافل بالإنتاج المعرفي في العلوم المختلفة، ولعل أقوى هذه الآراء ما قاله المستشرق «جورج سارطون»: لقد بلغ المسلمون ما يجوز تسميته معجزة العلم العربي.

وقد وردت كلمة «معجزة» لترمز إلى تفسير ما بلغ إليه العرب والمسلمون من الثقافة والعلم، بما يخرج عن نطاق التصديق، وأن أعظم الابتكارات العربية في الرياضيات والفلك

---

(62) طبقات المستشرقين - مرجع سابق ص134-15750

والكثير من العلوم التطبيقية والطبيعية.[63]

وتقول المستشرقة الألمانية «زنجريد هونكة» عن جهود العرب العلمية «إنهم قاموا بجهود غير مسبوقة في مجال المنهج العلمي التجريبي القائم على الرصد والملاحظة والقياس والمعادلات الرياضية، التي تعتبر خطوة علمية باهرة. مما جعل العربي عالم الطبيعة بالمعنى الحرفي للكلمة من حيث الاختراع والتجريب والحقائق العلمية البحتة، لقد عبّد العربي بآلاته حقول العلوم والمعارف البكر الوعرة بعيداً، ومهّد الطريق لهذا النوع من العلوم تمهيداً، وسوابق في هذه الميادين.

فالعالم العربي أصبح ـ كما تقول المستشرقة هونكه ـ مؤسس علوم الكيمياء العضوية، وأخضع العرب الفروض اليونانية للامتحان وإخضاعها لمعايير النقد العربية التجريبية، وصوبوا المئات من تلك الفروض الخاطئة ومن هذه الفروض اليونانية الخاطئة والتي خضعت للتقويم والنقد:

ـ خطأي جالينوس اللذين بيّنهما المشرح العربي الطبيب عبد اللطيف أحد أطباء صلاح الدين الأيوبي، وقد صوبهما.

ـ فساد نظرية جالينوس حول وجود ثقب في الحجاب الحاجز بالقلب، وبيان أنها خيال محض، على يد ابن النفيس الذي خلف عبد اللطيف في رئاسة المستشفى بالقاهرة، وتصويبه إياها باكتشافه للدورة الدموية الصغيرة.

---

(63) آفاق جديدة للدعوة الإسلامية في الغرب- أنور الجندي مؤسسة الرسالة ط1 1984ـ ص 205.

ـ خطأ نظريتي إقليدس وبطليموس الزاعمة أن العين تسلط نورها على المرئيات، بالتصويب العبقري لعالم البصريات ابن الهيثم مؤسس علم البصريات التجريبي، والذي وضع نظريات وقوانين عديدة في علم البصريات، مقدماً لأوروبا نظرية تكاد تكون متكاملة حول الأشعة، بما في ذلك الأسس التي عليها يقوم استخدام العدسات والمجاهر، وكافة أنواع المرايا وآلة التصوير بالتعتيم الشمسي وكشافات الضوء الكهربية وغير ذلك». [64]

هذه الآراء التي أبداها بعض المستشرقين لم تأت من فراغ أو من جانب تمنيات بل هي نتيجة لجهود هؤلاء المستشرقين الذين عكفوا على دراسة العلوم والمعارف سنوات وسنوات، وجاءت النتائج كما يقولونها الآن عن التاريخ العلمي للعرب ونتاجهم وابداعاتهم، وهو اعتراف المنصف للحقائق التي اكتشفوها وقالوها بلا مجاملة، وإن تعرض بعضهم للأذى والمضايقة من طرح هذه الآراء العلمية[65]

لقد استفاد الغرب كثيرا من جهود المستشرقين في أبحاثهم واكتشافاتهم للتاريخ العربي حيث تعرفوا على الكثير من العلوم والمعارف العربية بعد ذلك، وأفاد البرتغاليون من علوم العرب ومعارفهم المختلفة في مجال الرياضيات والفلك والخرائط

---

(64) الله ليس كذلك- زيجريد هونكه ـ نافذة على الغرب (3) ـ مؤسسة بافاريا ـ المانيا ـ دار الشروق القاهرة ـ ط 1 1995. ص 81 ـ 82.

(65) تعرضت المستشرقة الالمانية زيجريد هونكه للكثير من المضايقات وحملات تشهيرية على آرائها المنصفة اتجاه العرب خاصة بعد صدور كتابها القيم (شمس الله تسطع على الغرب).

والجغرافيا، ومن هذه العلوم ما وضعه أبو الحسن الفلكي في الاسطرلاب وخرائط الجزيرة الايبرية، فنقلها علماء قطالونيا إلى البرتغال وبناء السفن، فاستدعى الأمير هنري خبراء العرب بعلم البحار، واصطنع طرازاً من سفنهم في اكتشافاته، حقق «ماركو بولو» رحلة ابن بطوطة الشهيرة، واستعان فاسكو دي جاما بأحمد ابن ماجد ليهديه في مجاهل المحيط الهندي.[66]

وللتدليل اكثر تفصيلاً في هذه الرحلة التي تبرز مكانة العرب العلمية في مجال البحار ما كتبه بعض المستشرقين عن هذه الرحلة «حيث كان الملاحون العرب سادة البحار، ظهر ملاح عربي اسمه أحمد بن ماجد كان له الفضل الأكبر في تكوين الجغرافية الحديثة. فلقد حدث أن فاسكو دي جاما المستكشف البرتغالي المعروف، تاه في رحلته التي أرادها غرباً، فإذا بها تحمله نحو الجنوب فالشرق، وهكذا، ومن دون أن يدري، دار حول رأس الرجاء الصالح، إلى أن وصل في اليوم الخامس عشر من آذار (مارس) العام 1498 إلى الساحل الجنوبي الشرقي لأفريقيا، وضاعت عليه الاتجاهات، فدلّه بعض أهل ذلك الساحل إلى من وصفوه له بأنّه أعلم الناس بالبحر، فسعى فاسكو دي غاما إليه، وتعرّف عليه، وأوهمه أنه تاجر يريد أن يصل إلى بلاد الشرق للتجارة، فدلّه أحمد بن ماجد على أسلم الطرق البحرية الآمنة المؤدية إلى الهند، وكان الغربيون قبلها لا يعرفون تلك الطرق، فكانت جميع رحلاتهم السابقة تبوء بالفشل نظراً إلى شدة الأمواج في الطرق التي كانوا يسلكونها، إضافة إلى

---

(66) المستشرقون والإسلام ـ محمد قطب ـ مكتبة وهبه ـ القاهرة ط 1 1999 ـص 21.

عدم اتقانهم الاسترشاد بالنجوم والآلات والخارطات التي كان العرب قد عرفوها قبلهم بزمن طويل قد لا يستطاع تحديده.

ولعل من طرائف الأمور أن ابن ماجد هو أول من استخدم البوصلة للإهتداء بها في الرحلات البحرية، وله مواقع بحرية ما زالت مسمّاة باسمه في شواطئ الهند وأفريقيا. وبمقدار كون هذا الأمر طريفاً، إلا أنّه ليس مستغرباً. فابن ماجد من عائلة بحرية اشتغل أفرادها بقيادة السفن، وسبق لأبيه ماجد أن وضع أرجوزة باسم «الأرجوزة الحجازية» تضم ألف بيت في وصف عالم الملاحة، وصحّح الابن أحمد تلك الأرجوزة بعد أن خاض غمرات البحار، ووجد أن أباه كان قد وهم في وصف بعضها»(67).

وقد اعترف المستشرقون في دراساتهم العلمية بجهود العرب في الإضافة والابتكار في علوم الأقدمين، ولم يكونوا مجرد نقلة لهذه المعارف والفلسفات ـ كما ادعى البعض ـ «وإنما أضافوا إليها إضافات هامة مبتكرة لم تكن وليدة الصدفة وحدها، بل كانت مبنية أيضاً على قواعد ثابتة وتنظيم عقلي منهجي هو محك النظر في رسوخ العلم وأصالته عند أصحابه. فتركوا بذلك آثاراً واضحة في الطب والكيمياء والطبيعة والفلك والرياضيات بفروعها المختلفة، وانتجوا من ثمار الفكر ما لم تنتجه أمة قبلهم، ثم خلّفوا من هذه الثمار ـ رغم ما ضاع منها في الفتن والحروب والحرائق والتلف وملاحقات محاكم التفتيش في إسبانيا بعد خروج العرب منها ـ ما لم

---

(67) الجغرافية العربية استشكاف مجاهيل البر والبحر ومسارات البر والبحر ـ هادي حسن حمودي ـ جريدة الحياة العدد (13517) تاريخ 14/ مارس / 2000م.

تخلّفه أمة أخرى غيرهم. والدليل على ذلك أن عدد المخطوطات العربية التي وصلت إلينا حتى الآن وحدها ـ أي بصرف النظر عن تلك التي ضاعت في مراحل الطريق ـ تفوق عدد المخطوطات التي خلّفتها الأمم الأخرى مجتمعة، أضعافاً مضاعفة. وسيكون لسبق العرب للأوروبيين في ميادين مختلفة من العلوم أثر كبير في تعديل الأوضاع التاريخية لهذه العلوم ونسبته إلى روادها الأولين من العرب»[68].

ويشير بعض المؤرخين الأوروبيين ـ وبينهم مستشرقون ـ بالريادة العربية في هذا المجال والاكتشافات الغربية لمجاهل العالم الآخر، وفي القرن الرابع عشر والخامس عشر كان الفضل في أغلبه للعلوم العربية الإسلامية «ويقولون إنه من المستحيل انجاز الرحلات السالفة الذكر بغير أوروبا في الرياضيات ـ التي برع فيها العرب ـ إبان تلك القرون، لأن هذا مكن الملاحين من الاستعانة بأدوات ملاحية دقيقة إلى جانب براعة العرب والمسلمين في بناء السفن»[69].

ولا شك أن جهود الاستشراق في كشف التاريخ العربي كانت الأسبق إلى فتح هذا الكشف. وتعد المفتاح الرئيسي الذي بدأ به المفكرون العرب كتاباتهم التالية لهذا المجهود العلمي بغض النظر عن عمق هذه الدراسات أو سطحيتها حيث تناولت هذا الجانب، كصدى لكتابات المستشرقين، ولم يتم انجاز دراسات تكشف مكنون

---

(68) انتفاضة العقل العربي ـ د/ محمد عبد الرحمن مرحبا ـ دار عويدات ـ بيروت ـ ط 1 1994 ص 152.

(69) الحضارة الاسلامية والحضارة الأوروبية ـ دراسة مقارنة ـ د/ عماد الطويل ـ مكتبة التراث الإسلامي ـ ط1، القاهرة، ص37.

هذا العلم كنتاج بحوث مستقلة ما تناوله المستشرقون في جانب من جوانب هذه العلوم العربية عدا الإشادة بهذه الجهود من البعض أو الحكم عليها بالأغراض والأهداف الخبيثة من البعض الآخر.(70)

لقد كانت حركة الدراسات والترجمة للمستشرقين مجالاً خصباً لكشف التراث العلمي للعرب، وساهمت هذه العلوم في نهضة أوروبا وتقدمها بعد ذلك. وهذه الحقيقة قالها بعض المستشرقين قبل أن نفاخر نحن بهذه المكانة. ومن جانب آخر، فإن جهود هؤلاء في البحث العلمي كشف عن اللغات السامية القديمة ولهجاتها. ومن الأمثلة في هذه الأبحاث العلمية ما كتبه المستشرق السويدي «المكفيست» في كتابه [اضافات صغيرة إلى معجم العامية العربية] والمستشرق السويدي الآخر «لاندبرج» في كتابه [دراسات في اللهجات العربية الجنوبية] ودراسات عن لهجات البدو في حضرموت ودثينة.. ونجد هذه الروح العلمية عند «رودوا ناكس» في [اللهجات العامية في ظفار] وعند «راينهارت» في [اللهجة العربية في عمان وزنجبار].

واللهجات كما درسها المستشرقون كعلم من العلوم هدفه ـ كما قالوا ـ دراسة واقع هذه اللهجات المشتقة من اللغات الفصحى. فالباحث اللغوي يدرس واقع اللغة كما يدرس الجيولوجي واقع

(70) اطلعت على بعض الكتب عن الاستشراق والمستشرقين ولم أجد في كثير منها ذلك التفريق العادل بين المنصفين من المستشرقين، والمتعصبين منهم، بل وجدت تحاملاً غير عادل في كثير من الدراسات والبحوث والمقالات، وكان المفترض أن يكون الإنصاف من جانبنا لبعضهم أيضاً مثلما نطالبهم بالحياد والإنصاف والموضوعية في تناولهم للإسلام والعرب، عندما وجدنا التعصب والتناول غير العادل من جانب بعض المستشرقين.

الصخور وطبقات الأرض، وكما أن الجيولوجي لا يغير الصخور فاللغوي لا يغير اللغة، بل يدرسها لمعرفة عناصرها الصوتية والصرفية والتركيبية والمعجمية.(71)

وقد كان الكيميائي جابر بن حيان أول من وضع أسس علم الكيمياء، وحوله من النظريات والآراء إلى علم تجريبي له قواعده الراسخة في العلوم التطبيقية. وأن المستشرق الألماني وعالم الآثار المعروف عثر على معمل جابر بن حيان في الكوفة بالعراق، ووصفه بأنه كان موجود «في قبو تحت الأرض، وذلك للتحكم في درجات الحرارة وفيه قليل من الاثاث لتجنب الحريق، وفيه موقد كبير وأجهزة مختلفة زجاجية ونحاسية ومن أهمها، القوارير والأقماع والمناخل والمصافي والأحواض وأجهزة التقطير والأنابيق وهناك أيضاً أنواع الهاون والكرات المعدنية للسحق والصحن وهناك الموازين الدقيقة».

ويعتبر الرازي الذي جاء بعد جابر بقرن من الزمان أول من وضع القواعد الرئيسية لمعامل التحليل الكيمياوي، وابتكر أكثر من عشرين جهازاً منها المعدني ومنها الزجاجي. ووصفها جميعاً وصفاً دقيقاً في كتابه «الأسرار».(72)

ومن المستشرقين الذي اهتموا بدراسة العلوم المختلفة عند

---

(71) المستشرقون والمنهج المقارن في اللغة ـ د/ أحمد إبراهيم الهواري ـ جريدة البيان الإماراتية ـ العدد (5792) ـ ص21، بتاريخ 27 أبريل 1996 م.

(72) فضل المسلمين على أوروبا في النهضة العلمية الحديثة ـ علم الكيمياء ـ د/ أحمد شوقي الفنجري ـ جريدة الحياة ـ العدد (13488) ـ ص21، بتاريخ 14 فبراير 2000م.

العرب المستشرق الألماني «ديتريش فردريش» الذي درس اللغة العربية وآدابها ثم الفلسفة الإسلامية، وكذلك العلوم، ومن آثاره في هذا المجال [العلوم التقديمية عند العرب] و[المنطق وعلم النفس عند العرب] وكذلك [تصور الطبيعة وفلسفة الطبيعة عند العرب] وله أيضاً [علم الإنسان عند العرب والحيوان] ووضع معجماً عربياً ـ ألمانياً للقرآن وأيضاً للحيوان والإنسان. إلى جانب الدراسات والأبحاث الأخرى في الأدب والفلسفة والرحلات.[73]

المستشرق الفرنسي «سديو» أحد المستشرقين البارزين في متابعة جهود العرب العلمية، سيما الفلك والجغرافيا والرياضيات وكان أبوه قد بدأ أبحاثاً في تاريخ الفلك والرياضيات عند الشرقيين. فكتب القسم الخاص بتاريخ الفلك عند المسلمين، وقام ابنه بعد ذلك بمتابعة جهود أبيه في هذا المضمار، حيث تابع نشر أبحاثه في هذا الجانب: فأصدر بحثاً في [الآلات الفلكية عند العرب] نشرته أكاديمية النقوش والآداب في باريس، ثم نشر أبحاثه في تاريخ الرياضيات والفلك والجغرافيا.

وبين سديو أن العرب المسلمين أول من اكتشفوا معادلات الدرجة الثالثة في الجبر، وأنهم اخترعوا التلسكوب، وبنوا مراصد عديدة، مزودة بآلات الرصد المتنوعة، وحددوا حركة أوج الشمس، والخروج الدائري لفلك الشمس، ومدة السنة المتوسطة، وبينوا التناقض التدريجي لميل فلك البروج، وحددوا بدقة أوقات الاعتدالات.

---

(73) طبقات المستشرقين ـ مرجع سابق ـ ص124 ـ 126.

وكان للفلكيين العرب ـ كما يقول المستشرق «سديو» الفضل في التحديد الأدق لخطوط الطول والعرض على الكرة الأرضية.

وأهم أبحاث سديو في هذا الجانب العلمي: ـ

1 ـ رسالة الفلك لإبن الحسن حققها وترجمها إلى الفرنسية، ونشرت في مجلدين مع لوحات توضيحية.

2 ـ رسالة في الأطوال في الفلك العربي.

3 ـ أبحاث جديدة في تاريخ الفلك عند العرب.

4 ـ أبحاث جديدة في تاريخ العلوم الرياضية عند الشرقيين ـ ومنهم العرب.

5 ـ دراسة عن الحسن بن الهيثم.

6 ـ بحث في النظم الجغرافية عند اليونان والعرب.

7 ـ تاريخ العرب.

8 ـ بحث في أصل الأرقام التي سماها العرب.

إلى جانب الكثير من البحوث والدراسات في هذا الجانب العلمي الهام عند العرب.[74]

ومن المستشرقين الذين أوقفوا نشاطهم على كتب العرب ومخطوطاتهم في مجال علوم الرياضيات والكيمياء والطبيعة، المستشرق الألماني «فيادسان»، ونشر الكثير منها نشراً علمياً دقيقاً، ومن آثاره في هذ المضمار الاسهام في تدريس تاريخ العلوم الطبيعية

---

(74) موسوعة المستشرقين ـ مرجع سابق ـ ص236 ـ 239.

عند العرب، كتاب الحيل لابن الجزري، مفاتيح العلوم للخوارزمي، رسالة الكندي في المد والجزر بمعاونة المستشرق فرانك، تكوين خطوط الظل في الساعات الشمسية لثابت بن قرة. وصنف كتاباً في الفلسفة والطب.

ومن مباحثه وترجماته: ترجمات العلوم العربية، احصاء العلوم للفارابي، فصول الرياضيات والموسيقى، الآلات العلمية، علوم العرب وعلماؤها، الكندي، والجوبري، الطب العربي، كتاب الشفاء لابن سيناء، علم الفلك، والتنجيم، الأرقام العربية، والكثير غيرها من الأبحاث والدراسات في علوم العرب.[75]

أيضاً المستشرق السويسري «سوتر هينريش» اهتم في علوم العرب وأبحاثهم في الرياضيات والفلك، درس الرياضيات ثم أخذ دراسة اللغة العربية، ومن هنا بدأ في دراسة الرياضيات عند العرب، فأنتج اعمالاً متميزة منها على سبيل المثال:

- «تاريخ العلوم الرياضية» في جزئين (زيورخ 1872 ـ 1875).
- «الرياضيون والفلكيون العرب وأعمالهم» (ليبتسك 1900).
- «الرياضيون والفلكيون العرب وأعمالهم» (ليبتسك 1900).

ـ وفي 1892 ترجم الفصل المتعلق باسماء الرياضيين في كتاب «الفهرست» لابن النديم، مع التعليق عليها. لبيتسك، 1892 في مجموعة «أبحاث في تاريخ الرياضيات» المجلد السادس، برقم 1. وإلى جانب هذه الكتب، ألف سوتر عدة أبحاث صغيرة نشرها في

(75) المستشرقون ـ نجيب العقيقي ـ مرجع سابق ـ ص396 ـ 398.

«المكتبة الرياضية» وفي عدد آخر من المجلات. وقد جمعها يوسف فرنك تحت عنوان: «إسهامات في تاريخ الرياضيات عند اليونان والعرب» (ايرنجن 1922) وقدم لها بترجمة ذاتية قصيرة كتبها سوتر.[76]

---

(76) طبقات المستشرقين ـ مرجع سابق ـ ص149 ـ 150.

الفصل الثالث

الآثار

من أهم الجهود التي بذلها المستشرقون في كشف التاريخ العربي، بعثات الآثار التي جاءت إلى المنطقة العربية سواءً عن طريق بعثات رسمية من دول الغرب، أو جهود فردية لبعض المستشرقين المهتمين بحضارة العرب وتاريخهم القديم، وكان لهذا النوع من الأعمال والمهام الأثرية أن كشفت عن حضارات غابرة وأسرار مدفونة تحت الأنقاض لم نكن نعرف عنها شيئاً، وبعض معلوماتنا أقرب على قصص العواجيز والأساطير لم ترقَ إلى المعلومات العلمية الموثقة، وهذا ما برز في أغلب أعمال التنقيب التي أغلبها باشرها المستشرقون في القرون الماضية، ولا يزال بعضها إلى الآن قائم في بعض البلاد العربية، لكشف مكنونات تاريخنا العربي، الحضارية والثقافية والاجتماعية.

وفي العام المنصرم كشفت البعثات الأثرية الفرنسية والدنماركية والايطالية في سوريا عن آثار جديدة غير مكتشفة في بعض المدن السورية، ومن هذه المكتشفات منحوتات ومعابد تعود إلى الألف الثانية قبل الميلاد، وهذه الاكتشافات تعطي الدليل على أن بلادنا

العربية كانت مهد لحضارات وممالك مزدهرة[77]

وعلى الرغم من أن بعض الأيديولوجيين من المؤرخين والمستشرقين الغربيين قالوا إن العقلية الشرقية لا تنجز حضارة ولا تنتج إبداعاً، وهذه النظرية العرقية في تصنيف الشعوب ثبت زيفها ومركزيتها العرقية العنصرية للشعوب والحضارات الأخرى، من خلال الاكتشافات والدراسات العلمية للغربيين أنفسهم، وسقطت بالتالي نظرياتهم التي حاولوا أن يرسموها على مقياسهم، ولا نريد أن نتوسع في هذه القضية، لأنها ليست مجال نقاشنا في هذا البحث المتواضع[78]

وتعتبر التنقيبات والاكتشافات الأثرية في القدس العربية أولى أعمال المستشرقين في المنطقة العربية، من أجل التعرف على تاريخ المدينة المقدسة.

وأول تنقيبات أثرية منهجية قامت فيها كانت بين أعوام (1865 ـ 1867) برعاية صندوق الاكتشافات البريطاني، وقد تمكن المستشرق وارين عن طريق الأنفاق والقنوات أن يتعرف على أسوار مدينة القدس القديمة. وفي عامي (1909 ـ 1911) قامت بعثة بريطانية بإدارة السيد «باركر» ببعض أعمال التنقيبات في بعض الأنفاق والقنوات في

---

(77) ناقش هذه القضية باستفاضة كل من الدكتور محمد عابد الجابري في كتابه [مسألة الهوية والعروبة والإسلام والغرب]، وسالم يفوت في كتابه [حفريات الاستشراق]، المركز الثقافي العربي ـ الدار البيضاء وبيروت.

(78) اكتشافات جديدة للبعثات الأثرية الفرنسية والدنمركية والإيطالية العاملة في سورية ـ تقرير عبد الكريم درويش ـ جريدة الحياة، العدد [13729]، بتاريخ 13 أكتوبر 2000 م.

أسوار القدس، وفي وادي قدرون المتصلة بنبع جيجون، وبعد العدوان الإسرائيلي في 1967 واحتلال القدس الشرقية قامت السلطات الأثرية الإسرائيلية باجراء تنقيبات أثرية 1968، والهدف هو العثور على آثار حضارية تحقق أحلامهم وزعمهم تعود إلى الفترة الهيرودية، إلا أن الاكتشافات خيبت آمالهم، وكشفت آثار التاريخ العربي الإسلامي التي تعود إلى العصر الأموي حيث عثر على ثلاثة أبنية ربما تكون قصوراً تشبه تلك القصور التي تنتشر في سوريا وفلسطين والأردن وبعض القلاع العربية القديمة.[79]

وإذا جئنا إلى جنوب الجزيرة العربية فإن المستشرقين أولوا هذه المنطقة اهتماماً كبيراً بتاريخها وآثارها وحضاراتها المتعاقبة، سواءً في رحلات شخصية استكشافية أو بعثات أثرية، وتعتبر رحلة المستشرق «غلاسر» من أهم الرحلات الاستكشافية في تاريخ العرب الجنوبيين، وخاصة حضارة سبأ «وخلال رحلته، قام بدراسة وافية لجغرافية اليمن وجيولوجية طبقات الأرض فيها، كما ركز اهتمامه على العلاقات الاقتصادية والسياسية، وأثرها، في تفكك العلاقات الاجتماعية والقرابية، بين القبائل العربية في اليمن، إلى جانب دراسته لتاريخ المنطقة الحضاري، والآثار الكثيرة التي تركها السبئيون. وقد جمع غلاسر، خلال رحلته إلى اليمن، العام 1882، ألفي قطعة أثرية ومخطوطة، من آثار حضارتي سبأ ومأرب. وعند رجوعه إلى أوروبا، بدأ بدراسة هذه القطع الأثرية والمخطوطات،

---

(79) القدس الشريف ـ منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ـ ايسيكو ـ شركة بابل للطباعة والنشر والتوزيع ـ الرباط، المغرب ـ 1988م، ص107 ـ 111.

وتحليل رموزها، وقد وافته المنية دون إكمال بحوثه.

وواصل علماء الآثار واللغات السبئية، من بعده، دراسة هذه القطع والمخطوطات الأثرية، وفك رموزها، وبصورة خاصة، علماء الآثار واللغات الأميركان»[80]

وتعد منطقة مأرب اليمنية مهد أعرق حضارة قديمة عرفت في جنوب الجزيرة العربية، مملكة سبأ التي كانت المرتكز الأساسي للحضارات اليمنية القديمة التي سادت جنوب الجزيرة العربية، وقد كان للمستشرقين الدور الهام في كشف هذه الحضارة وما تلاها من مكتشفات في جنوب الجزيرة لحضارات أخرى في هذه المنطقة، وقد حولت أعمال الحفر والتنقيب المتواصل عن عرش بلقيس، التي قام بها فريق أثري ألماني، من أساطير غير دقيقة عن هذه الحضارة إلى حقيقة على أرض الواقع، حيث انهى هذا الفريق في نوفمبر ـ 2000م التابع لمعهد برلين للآثار البحث عن عرش بلقيس بعد 13 سنة من الجهود المتواصلة في الحفر والتنقيب في مدينة مأرب التاريخية، وجاءت نتائج هذا البحث باهرة بما تم اكتشافه من نصوص ونقوش وأحجار تعود إلى بداية الألفية قبل الميلاد.[81]

وكانت بعثات الاكتشاف الغربية في جنوب الجزيرة العربية قد بدأت نشاطاتها الأثرية بعد الحرب العالمية الثانية. حيث تم استدعاء البعثات العلمية وخبراء الآثار والمستشرقين للكشف عن الخزائن

---

(80) صورة الشرق في عيون الغرب ـ مرجع سابق ـ ص66.

(81) آثاريون غربيون يعلنون عن فتح باب جديد للحضارة السبئية في اليمن ـ مجلة الزمان، العدد [13]، بتاريخ ديسمبر 2000م ـ تقرير حمود منصر، ص48 ـ 51.

والكنوز الأثرية ومعالم الحضارات، في هذه المنطقة التي تعد من المناطق التي نشأت فيها الحضارات العربية القديمة.

وأول بعثة علمية غربية كانت ألمانية، «برئاسة كارل راينتس، عالم الآثار المشهور، وهيرمان فون فيزمن عالم الجغرافيا، ثم تبعهما المستشرق الألماني، آبتز، وخلال الأعوام الخمسة، التي قضتها البعثة في اليمن (1927 ـ 1931)، قامت بالتحريات الجغرافية والجيولوجية، ودراسة النباتات الطبيعية. وبمساعدة من إمام اليمن، بدأت الحفريات الأولى في معبد السبئيين، بعد استكمال الدراسات الأولية. وقد حدثنا فيزمن، أحد أعضاء البعثة الألمانية، بأن إمام اليمن، كان قد أرسل معهم، إلى معبد السبئيين، فريقاً من الجنود، بقيادة الشريف سيدي عبد الله. وقد استقبلت البعثة، هناك بحفاوة بالغة التقدير. وعندما وصلت إلى مواقع الآثار الرئيسية، على سفح جبل، في الجنوب، شاهدوا رجالاً منهمكين في الحفر والبحث عن الآثار، بصورة سريعة، للحصول على بعض الأواني والقطع الحديدية. وكان من المدهش الغريب، أنهم كانوا يهدمون الجدران والأعمدة المرمرية، والتماثيل التي تقف أمامهم، بطرق بدائية. ولم تستطع البعثة الأثرية إقناعهم بأهمية كل جدار وحجر وطابوقة وعمود من المرمر، لأنها آثار قديمة ومهمة وثمينة جداً. وكان علينا أن نذهب إلى سيدي عبد الله، لتوضيح أهمية هذه الآثار، وخطورة ما يفعلون، وإعطاء الأوامر بالتوقف عن التهديم والتخريب، وترك كل جزء من هذه الجدران والأعمدة والصخور، في مكانه، دون تهديمه أو تحريكه أو رميه، إلا بموافقتنا. غير أن سرعة الرجال في الحفر والتهديم، لم تجنبنا المخاطر، ولم تساعدنا على المحافظة على قطع

الآثار الثمينة. وفي مدة قصيرة، كان قد تم تهريب الكثير من هذه القطع الأثرية، من وراء ظهورنا. . وكان أجمل قطع الآثار وأثمنها هو رأس الأسد البرونزي، الذي عثرنا عليه، إلا أنه اختفى عن أعيننا بسرعة خاطفة. وقد وجدنا أجزاء مكسورة من رأس أسد برونزي آخر، لا يقل جمالاً وأهمية عن الأول، في مدينة حجا. وكان علينا أن نبحث ونفتش عن الآثار المهمة، التي اختفت من معبد سبأ، في كل بيت من بيوت المدينة. وقد وجدنا أن كثيراً من القطع الأثرية النادرة، كانت قد استعملت في بناء البيوت، أو لصقت على الجدران، أو أنهم جعلوا من قطع الرخام الثمين أبواباً للبيوت، أو إطارات لشبابيك الغرف». [82]

وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، بدأت أيضاً البعثات تتوالى إلى العالم العربي بعد أن توقفت أثناء الحرب فقط. وأول بعثة وصلت كانت البعثة الأمريكية لدراسة الإنسان برئاسة «وندل فليبس» ويرافقه العديد من علماء الآثار والجيولوجيين والجغرافيين، وقد قامت البعثة ببعض الحفريات في بعض المواقع الأثرية منها في منطقة مأرب ـ موقع عرش بلقيس ـ وعثرت البعثة على العديد من القطع والكتابات والنقوش، لكن البعثة لم تستمر، في اليمن كثيراً، بسبب بعض الخلافات على الآثار المكتشفة، فاتجهت البعثة الأثرية الأمريكية بعد ذلك إلى ظفار بسلطنة عمان، حيث قامت بالتنقيب في بعض المواقع الأثرية. [83]

---

(82) صورة الشرق في عيون الغرب ـ مرجع سابق ـ ص77، 78.
(83) المرجع السابق ـ ص79 ـ 80.

جاءت البعثة الأمريكية إلى ظفار بسلطنة عمان في 6 مارس 1952 بعدما تركت مأرب في اليمن في 12/ 2/ 1952، يترأس البعثة المستشرق «وندل فليبس» نفسه، وقد تأخر فترة في عدن لتدوين نتائج الحفريات في اليمن، ثم جاء إلى مسقط قبل مجيئه إلى ظفار حيث أبرم عقداً مع الحكومة العمانية لإجراء الاكتشافات الأثرية فيها.

وعلى مدى ثلاثة عشر شهراً قام فريق البعثة بالحفر لمدة 113 يوماً، وجاءت النتائج جيدة ـ كما تقول حفريات البعثة ـ إذ كشفت المعلومات تاريخ المنطقة التي كانت إلى وقت قريب سراً غامضاً لم يتم معرفته، وربما القطع الأثرية التي عثر عليها كانت تحتوي على معان ودلالات قيمة، إلى جانب البوابات والمعابد المحفورة والنقوش التي كشفت عن مدينة «سمهرم» التاريخية التي كانت مدينة مزدهرة في العصور القديمة، وميناء هام لتصدير اللبان إلى الحضارات القديمة الفرعونية والفينيقية والرومانية في عصور مختلفة.(84)

كما جرى التنقيب في مناطق أخرى أثرية منها منطقة البليد التي تقع شرق مدينة صلالة التي كانت مزدهرة في العصر الإسلامي، وقد زارها الرحالة ابن بطوطة في القرن السابع الهجري، ووصفها في رحلته الشهيرة. كما نقبت البعثة الأمريكية عن الآثار في منطقة المغسيل، وهي منطقة ساحلية قريبة من ميناء صلالة للحاويات

---

(84) حفريات ظفار عام 1952م ـ الفريق الأمريكي لدراسة الإنسان ـ ترجم وطبع على نفقة الشيخ / زيد بن علي بن سالم الغساني ـ مراجعة وتصحيح سعيد بن مسعود محمد المعشني 1997م صلالة سلطنة عمان، ص11 ـ 12.

[ريسوت] وكذلك تم التنقيب عن الآثار في حانون، والرباط، ومدينة مرباط التاريخية، لكن التنقيب عن الآثار تركز على منطقة سمهرم الشهيرة ومينائها القديم الذي يسمى «موسكا» وقد استنتج الرحالة البريطاني جي. بي. بنت الذي زار هذا المكان في عام 1895م بعض النتائج لما شاهد وقرأ لقدامى المؤلفين منها أن خور روري كان هو نفسه الميناء، وأن انقطاعات مرباط على الصخرة شرق مدخل الميناء كانت قلعة لحماية الميناء. وعلى هذا (رغم أن لغته ليست محددة) فإن الأطلال الموجودة في مدينة طاقة التي تبعد مسافة قصيرة غرب خور روري كانت هي المدينة التي سماها كلاديوس بوتلمى «موسكا»، واستشهاداً بمقالته التي كتبها عام 1895 فإنه يقول: «يوجد في طاقة آثاراً منتشرة لأطلال مدينة قديمة، التي لا بد وأنها كانت الثانية في أهميتها بعد العاصمة (البليد)، نفس الأعمدة. . .» فقط ليست بدون زخرفة أو ديكور. تقف هنا، وهناك تشير إلى مواقع المقابر والمعابد. كما مررنا بالعديد من التوابيت الحجرية الضخمة وبأطلال أخرى، وكلما إنحدرت الجبال مقتربة جداً من البحر، يصبح المكان أكثر جاذبية، وها هي القرية الحديثة إحدى أكبر هذه القرى المنتشرة فوق سهل ظفار. والآن يتضح بدون جدال أن خور روري هو الميناء الذي سماه «س. بوتلمي» وسابقوه «موسكاليمين» أو «ميناء موسكا». وكل الدلائل من الدراسات الجغرافية والبحوث القديمة التي ذكرها «ج. ب. بنت»، والتي أشار إليها آخرون، ومن البحوث التي قامت بها البعثة الأمريكية في المنطقة والحفريات في نقطة «سمهرم» حتى خور روري فإن هذا الموقع يتوافق تماماً مع جميع الشروط التي ذكرت، وليس أي موقع آخر.

ج.ب.بنت رأى بأن الأطلال القديمة غرب المدينة الحديثة طاقة، والميناء عند خور روري على بعد بضعة كيلومترات شرقه، ويبدو من لغته أنه وصل إلى استنتاج أن هذه الأطلال هي بقايا المدينة القديمة «موسكا» وخور روري هو ميناؤها.[85]

وقد عثرت البعثة في بعض مواقع سمهرم على نقوش بالخط المسند الحميري، أو ما يسمى بالعربية الجنوبية، وما زالت هذه الخطوط والنقوش واضحة على أبواب القلعة. وهناك بئر محفورة على عمق يقدر بحوالي 70 ـ 100 في ذلك المكان الأثري، وخلال أعمال التنقيب رفعت الأنقاض عن معبد بكامله يسمى إلم، يشتمل على نظام لطقوس الوضوء والاغتسال للقرابين، كما تم العثور على العديد من التماثيل، والقطع البرونزية وعملات تقدر بـ 1250 قطعة، وكمية من مادة اللبان، وقطعة برونزية عليها كتابات قديمة تتكون من عدة أسطر تقرأ من اليمين إلى الشمال. ومن النقوش التي وجدت على أبواب المدينة نقش يذكر الملك العزيالوت الذي أشار إليه الكاتب البربلوس في الحقبة الواقعة ما بين القرن الأول والثالث الميلادي.[86]

وفي المواسم التالية للحفريات في ظفار من قبل البعثة الأمريكية لدراسة الانسان، تم العثور على مذبح ـ قربان ـ مسطح طوله قدمان ينتهي كالعادة برأس حيوان (ثور) ويمتاز هذا الرأس على حد قول

---

(85) المرجع السابق ـ ص15 ـ 17.

(86) الآثار التاريخية في ظفار ـ سعيد بن مسعود محمد المعشني ـ ط1 ـ 1997 م، ص14.

فليبس بصورة ورقة نبات على جبهته. وقد اتضح من خلال التنقيب أن المدينة في غاية من التحصين، حيث يحيط بها برجان أحدهما عند الطرف الجنوبي الشرقي والآخر عند الطرف الشمالي، ويبدو من الصعب مهاجمتها لوجود بنيان قوي يبلغ عرضه 8 أقدام، وارتفاعه من 15 ـ 20 قدماً، كما أن مدخل الخور الجنوبي يتمتع بحماية كافية ويصعب اجتيازه كما سلف القول، لوجود نقاط دفاعية كبيرة وسور حجري ما زالت آثاره واضحة للعيان إلى اليوم. وفي الموسم الأخير وجدت البعثة سبعة نصوص بالعربية الجنوبية بعضها يذكر الملك اللار. ووجدت كتابات مختلفة منها الضارب في القدم، ومنها ما يعود إلى عصور متأخرة. وقد وضح أخصائي النقوش والخطوط في البعثة أن اسم المدينة هو (سم هورم) رجح أن تكون الصيغة سبئية، وقد فسرها في حين آخر باسم (سمارام) أي الخطة العظيمة على، اعتبار أنها بناءً رغب فيه الملك وأنجزه على خطة دقيقة. وهناك من يرى أن سمهرم اسم قبيلة عربية قديمة قد خلدت اسمها على بوابة المدينة.[87]

ومن المواقع الأثرية في ظفار التي اهتمت بها البعثات الأثرية الغربية، الآثار في منطقة شصر، والتي سماها بعض المؤرخين «وبار» أو «أوبار» والبعض الآخر «إرم» المذكورة في القرآن الكريم.

وقد قامت بعثة «ترانس اربيا» بالتنقيب على آثار في هذه المنطقة التي تبعد 160 كيلومتراً من مدينة صلالة العمانية، وهي العاصمة الإقليمية لمحافظة ظفار خلال أعوام 90 و 91 و 1992 م.

---

(87) المرجع السابق ـ ص14 ـ 15.

وأثبت المسح وجود 4 أبراج وبقايا المدخل الرئيسي، وكذلك ثلاثة أنواع من الفخار.

وكانت منطقة شصر (أوبار) مسرحاً لاكتشاف هذه المدينة القديمة وآثارها، وجرى التنافس بين المستشرقين على «اجتياز صحراء الربع الخالي لتحديد موقع مدينة إرم أمثال فيلبي، ولورانس، وتوماس، وفيلبس، وثيسيجنر، وذلك لتحديد موقع المدينة العربية المفقودة من ناحية، ومعرفة مجاهل رمال الربع الخالي من ناحية أخرى. وكانت أغلب هذه الرحلات تنطلق من مدينة صلالة بظفار بواسطة قوافل الجمال وخبراء الدروب الصحراوية من ظفار.

ويقول المستشرقون أن ازدهار منطقة شصر بدأ في العصر الإغريقي والروماني حتى القرن الخامس الميلادي، لكنها سبقت هذا التاريخ بكثير. كانت آخر فترة تاريخية في شصر كما تقول بعض المصادر تعود إلى القرن الثالث عشر حتى السادس عشر الميلادي، بدليل وجود الأواني الصينية الأصل والزجاج الملون باللون الأخضر دلالة على ازدهار التجارة، ويقول بعض المؤرخين إن شصر تعرضت للتدمير بواسطة البرتغاليين في أوائل القرن السادس عشر الميلادي، إلا أن هذا الرأي ليس دقيقاً لأن البرتغاليين تمركزوا عند وصولهم ظفار في أعلى قمة ريسوت [ميناء صلالة]وبنوا بعض التحصينات هناك، إلا أنهم واجهوا مقاومة شديدة بعد عدة أسابيع أو ربما أقل من دخولهم ظفار»[88].

---

(88) ظفار في الكتابات التاريخية ورحلات الباحثين ـ عبدالله علي العليان ـ مجلة نزوى الفصلية ـ مسقط، العدد (24)، أكتوبر 2000م، ص43 ـ 44.

من المواقع التي حظيت باهتمام البعثات الأثرية الأوروبية مكتشفات رأس الجنيز في المنطقة الشرقية من عمان، من قبل مجموعة من المؤسسات الإيطالية والفرنسية، وقد تمكنت البعثة من الكشف على العشرات من المواقع الأثرية، ومن أبرز هذه المكتشفات العثور على موقع سكني وميناء قديم يعتبر من أقدم الموانئ التي عرفتها شبه الجزيرة العربية، وعلى كميات من الفخار وأدوات الزينة وأختام. . إلا أن الأهم في هذه الاكتشافات اكتشاف كتابات يشير الباحثون إليها من خلال دراستهم بأنها أقدم كتابة هجائية تم التعرف عليها حتى الآن، وربما تعود إلى النصف الثاني من الألف الثالث ق.م، ولا تزال هذه الدراسات قائمة لتحديد تاريخ هذه الكتابات بصورة أدق من الناحية العلمية.(89)

أما في الفترة الإسلامية فإن البعثات الأثرية ـ كما يقول المستشرق الأمريكي «بور زارينز» جامعة ميسوري ـ إن البعثة الأثرية التي نقبت عن الآثار في منطقة «حمران» في ظفار بسلطنة عمان، وجدت عملات معدنية كثيرة العدد في الموقع المكتشف تماثل المكتشفات في المواقع الساحلية، وفي شصر «اوبار» وأن البضائع الإسلامية المكتشفة في قلعة ريسوت بمدينة صلالة، توحي أن الطريق الساحلي كان شديد الازدحام في فترة الدولة العباسية، وتحديداً البحر الأحمر، وعلى طول الساحل الشرقي لأفريقيا، غير أن أفضل الأدلة على الفترة الإسلامية تعود إلى القرن الثاني عشر وحتى القرن الخامس عشر الميلادي، فكلتا النقوش والمواد التاريخية

---

(89) الآثار في عمان ـ رفيعة الطالعي ـ مجلة نزوى، مسقط، العدد (الثامن)، تاريخ أكتوبر 1996، ص10 ـ 11.

تشير إلى وجود تجارة مزدهرة على طول ساحل صلالة. وإن من جلي الأمور ـ كما يقول المستشرق زارينز ـ أن سهل ظفار ـ في سلطنة عمان ـ شارك في شبكة تجارية طويلة السلسلة، عبر الربع الخالي وعلى طول المحيط الهندي لمدة خمسة آلاف عام.[90]

كانت مدينة ظفار العمانية اشتهرت منذ العصور القديمة، كما أشرنا آنفاً بتجارة «اللبان» الكندر الذي كان سلعة قيمة، كما أشار بعض المؤرخين والمستشرقين الذين كتبوا عن هذه السلعة ورواجها في تلك العصور مثل «وندل فليبس» في كتابه [كنوز مدينة بلقيس] أو غيرهم من المستشرقين «برترام توماس» أو «هـ. ج. كارتر» أو الرحالة الإيطالي «ماركو بولو» وغيرهم.

ويرى بعض المستشرقين أن سلعة اللبان كانت سلعة كمالية «استخدمها الإنسان منذ الأزمنة السحيقة في مناسبات خاصة تتعلق بالطقوس والاعتقادات الدينية. وفي النصف الثاني من الحقبة في الألف الأولى قبل الميلاد ازداد الطلب على اللبان نتيجة للإستهلاك المتزايد في كل من بلاد ما بين النهرين وسوريا واليونان ومصر الفرعونية وروما، حيث ازداد الطلب إلى قمته في القرون الأولى الميلادية. وكان ذلك هو العصر الذي كانت فيه اللبان هي أهم سلعة على الاطلاق يجري تصديرها من بلاد العرب إلى الغرب، بل من الجائز أيضاً إلى الصين وهو الأمر الذي يمكن مقارنته بسلعة النفط في العصور الحديثة.

---

(90) التنقيبات الأثرية في محافظة ظفار ـ بوريس زارينز ـ ترجمة عبدالله الحراصي ـ مجلة نزوى ـ العدد الثاني ـ مارس 1995م ـ ص9 ـ 11.

إلا أن الطلب على اللبان أخذ يتضاءل، ولكن لم تتوقف تجارته كلية، إذ إننا نجد أن الصيني المدعو تشان جو ـ كوا (1250 م) كان قد ذكر اللبان ضمن السلع المستوردة من ظفار، كما وأن الرحالة الإيطالي ماركو بولو ذكر نفس الشيء وهو الذي زار ظفار حوالي عام 1285م» . [91]

ويذكر الباحث عبد القادر بن سالم الغساني في كتابه [ظفار أرض اللبان] أن الحفريات في ظفار بسلطنة عمان، كشفت عن وجود قلاع وحصون كانت تبنى وتخزن بها اللبان بهدف تصديره بحكم قيمته المرتفعة في العصور القديمة، وقد اشتهرت واحة «اندهور» التي تقع على بعد أربعين ميلاً شمال مرباط بأنها منطقة تجميع أجود أنواع اللبان في جنوب شبه الجزيرة العربية قاطبة، وكانت هذه المنطقة قد حصنت بالقلاع التي كان يحفظ فيها اللبان قبل تصديره. كما أن آثار منطقة البليد التي تقع على الساحل من الناحية الشرقية من صلالة لهي دليل مادي آخر على أهمية تجارة اللبان، حيث أوضح «وندل فليبس» أن هذه المنطقة كانت معروفة باسم البلد، وقد عرفها رحالون وجغرافيون كثيرون مثل «بيتولومي» .

وقيل إن البليد كانت تعرف أيضاً باسم ظفار، وأنها كانت تحت سلطة أمير احتكر كل مناطق انتاج اللبان، وأصدر الأوامر وشرع الأحكام والقوانين التي بلغت درجة الإعدام في حق كل من تسول له نفسه أن يخرق قوانينه المنظمة لإنتاج وتسويق اللبان في المنطقة.

---

(91) دراسة لمدينة ظفار (البليد) ـ بقلم المستشرق «باولو .إم. كوستا» ـ سلطنة عمان، وزارة التراث القومي والثقافة ـ ط1، 1984م ـ ص1211.

وعلى الرغم من أن ظفار لم تكن معروفة في القرون الوسطى، لكن تقرير المستشرق الرحالة ماركو بولو عنها يوحي بأنه وعلى الرغم من اضمحلال الحضارات القديمة، والذي تبعه اضمحلال في طلب الأصماغ العطرية، التي كانت تستعمل أساساً في الأغراض الدينية، نجد أن هذا لم يحد من تجارة اللبان في ظفار أبان القرون الوسطى.

كانت القوافل التجارية النشطة التي تقوم برحلات منتظمة إلى الأجزاء الجنوبية من شبه الجزيرة العربية من طريق «البخور» واصلة بين ظفار وجدة، تحمل باللبان حتى ما بعد سنة 1600، وهذا دليل مادي على نشاط تجارة اللبان التي لم تتوقف أو تركد.[92]

وإذا عرجنا قليلاً إلى حضارة «دلمون» البحرين حالياً، لوجدنا أن جهود المستشرقين أظهرت وجود حضارة تمتد إلى عصور ما قبل الميلاد، وكشفت التنقيبات عن عاصمة دلمون التي يرجع تاريخها إلى الألفية قبل الميلاد.

ويعتبر عالم الآثار المستشرق البريطاني «جيفري بيبي» أحد المستشرقين الذين ارتبط اسمهم بآثار البحرين وبحضارة دلمون منذ خمسة عقود من الزمان. وفي سنة 1949 بدأ جيفري بدراسة حضارة دلمون مع أحد الباحثين «بجلوب». وخطط الاثنان سوياً للقيام لتنظيم بعثة للتنقيب عن الآثار فيها، باعتبارها حضارة لا يزال يغلفها

---

(92) تم تقديم هذه الدراسة من قبل الباحث إلى ندوة (حصاد الدراسة العمانية) ـ نوفمبر1980م، مسقط ـ ص43 ـ 44.

الغموض وتحيط بها الأسرار، والتي كانت مركزاً تجارياً يزود بلاد ما بين النهرين القديمة.

وقد أدت التنقيبات التي قامت بها البعثة الدنماركية على اثبات أقدمية دلمون من خلال التنقيب عن معبد باربار المعاصر لها، وقد أصدر المستشرق جيفري بيبي كتاباً بعنوان [بحثاً عن دلمون] يحكي فيه قصة بعثة الآثار الدنماركية والنتائج التي توصلت إليها.[93]

وتؤكد حفريات الأثريين الدنماركيين التي كشفت في جنوب مدينة العوالي في البحرين، عن سلسلة من أسوار حجرية دائرية الشكل «تشبه فوهات المداخن تظهر فوق سطح الأرض قليلاً، وبعد التدقيق في تفاصيلها، تأكد للبعثة الدنماركية بأن هذه الفوهات تشير إلى امتداد قناة حجرية شيدت على عمق عشرين قدماً من سطح الأرض، لتنتقل المياه من مصادر العيون في التلال الوسطية لجزيرة البحرين، وتسير صوب الأراضي الزراعية في المناطق المنخفضة عند أطراف الساحل الغربي للجزيرة. وبذلك فهي نموذج لفلج قديم كان واسطة لنقل المياه الوفيرة من مكان إلى آخر يحتاج إليها، ورغم عدم توفر دليل آثاري لتاريخ هذه القناة، إلا أن شهرة جزر البحرين تاريخياً، وكذلك المنطقة الساحلية المقابلة لها في الاحساء والقطيف، في شؤون الزراعة والسقي، يدفعنا لافتراض تاريخ قديم لمشاريع الري هذه.. إن الدليل التاريخي الوحيد المتوفر حتى الآن بخصوص قنوات الري الجوفية هذه ـ الأفلاج ـ جاءنا من قناة شيدها

---

(93) جيفري بيبي: وداعاً للباحث عن دلمون ـ محمد علي الخزاعي ـ مجلة البحرين الثقافية ـ السنة الثامنة ـ يوليو 2001م، ص32 ـ 37.

الملك الأشوري سنحاريب (704 ـ 681 ق.م) في منطقة اربيل بشمالي العراق». [94]

وتؤكد بعض الحقائق التي كشفت عن طريق النقوش والنصوص القديمة الأثرية، التي وجدت في منطقة الخليج العربي وعمان، «أن التجارة البحرية كانت قائمة بين مدن الخليج وعمان قبل أن يتكون القسم الجنوبي من العراق في حدود (5000 ق.م) لأن المعلومات المتوفرة عن تجارة العراق القديم قد أكدت وبوضوح كامل بأن السفن التجارية التي كانت تأتي إلى موانئ المدن العراقية القديمة هي سفن لا تعود ملكيتها إلى المدن العراقية، بل إن ملكيتها كانت تعود إلى ميلوخا ومجان ودلمون.

وهذه الحقيقة لوحدها تؤكد بأن هذه المدن كانت تمارس التجارة البحرية، وكانت تمتلك من السفن الشراعية ما يسد حاجتها. ولذلك عندما تكون القسم الجنوبي من العراق وبدأت قراه الزراعية تتحول تدريجياً إلى مدن، برزت حاجته إلى الأحجار والأخشاب والنحاس والأحجار الكريمة، ولذلك بدأت السفن العائدة إلى ميلوخا، ومجان، وجوبن ودلمون تأتي بتجارتها إلى المدن العراقية لبيعها هناك، لأن القسم الجنوبي من العراق يفتقر تماماً إلى الأخشاب التي تمثل المادة الضرورية في صناعة السفن، ولذلك ما كان بإمكانه في بداية تكونه أن يبني له أسطولاً تجارياً ما لم يستورد الخشب بسفن غير عراقية.

---

(94) عمان في التاريخ ـ الفصل الثاني، المجتمع العماني في العصور القديمة ـ مرجع سابق ـ ص79، 80.

ولهذا السبب بالذات نجد أن جميع الملوك الذين تحدثوا عن تجارة العراق مع مدن الخليج العربي، قد ذكروا بأنهم قد تركوا سفن ميلوخا ومجان ودلمون ترسو في موانئ مدنهم. وهذه الحقيقة لوحدها اعتراف صريح من قبل الملوك العراقيين بأن التجارة في الخليج العربي لم تكن تحت زعامة المدن العراقية، بل إنها كانت تحت زعامة المدن الثلاث التي مر ذكرها»[95].

أما بالنسبة للرحالة المكتشفين للجزيرة العربية، فإن رحلة «فلفريد تيسيغر» تعتبر آخر رحلة لهذا النوع من المكتشفات، والتي كانت في عمان وبعض مناطق الجزيرة بين (1945 ـ 1949) حيث تجول هذا الباحث الأنثروبولوجي الإنجليزي في أغلب أنحاء الجزيرة العربية «ولم يكن تيسيغر ديبلوماسياً، ولا عسكرياً، بل كان عالماً أنثروبولوجياً متضلعاً، سعى إلى دراسة الحضارة المادية والمعنوية للبدو والبداوة، على أساس منهج البحث العلمي الميداني. وقد استغل تيسيغر عرضاً، قدمه مركز البحوث البريطانية، لمكافحة الجراد في الجزيرة العربية، فشارك في تلك البعثة، إلا أنه ما لبث أن انفصل عنها، وعاش مع البدو، فرافقهم في ترحالهم. وبذلك، استطاع دخول الربع الخالي واكتشافه عن كثب. ولهذا، يعتبر تيسيغر المكتشف الحقيقي للربع الخالي، الذي لم يستطع توماس وفلبي اكتشافه، من قبل. كما استطاع أن يصل إلى آخر جبل من جبال عمان الشاهقة. وقد أشبع تيسيغر طموحه، وهو العيش مع البدو، ومقاسمتهم حياتهم الخشنة، في السراء والضراء، تلك

---

(95) المرجع السابق ص84.

الحياة، التي لم تتغير، منذ أكثر من ألفي عام»[96].

أما إذا اتجهنا إلى شمال الجزيرة العربية، فإن جهود المستشرقين في هذا الجزء من الوطن العربي كانت هامة وقيمة، في كشف تاريخ الحضارات والممالك التي نشأت في هذه المنطقة منذ القدم، ومن خلال الحفريات والبحث عن الآثار والنقوش. وإن أقدم الممالك كانت مملكة الأنباط التي يعود نشاطها إلى القرن السادس قبل الميلاد. ويقول المستشرق العربي الأمريكي «فيليب حتي» أن بداية نشأة هذه المملكة العربية عندما «نزحت قبائل بدوية من شرق الأردن ونزلت أرض الأدوميين وهي تسمية عبرانية معناها أحمر، كانت تطلق على تلك البلاد لشدة احمرار صخورها الرملية ورخامها السماقي» فور وطأتهم هذه البلاد انتزعوا من الأدوميين البتراء وجعلوها عاصمة لهم، وبدأوا التوسع إلى النواحي المجاورة في وادي موسى من أعمال شرق الأردن. يجمع المؤرخون على أن الأنباط كانوا يتفاهمون ويتكلمون اللغة العربية التي لم يكن لها حروف في هذه الفترة، فاستمدوا صور الكتابة من الآراميين جيرانهم في الشمال. ولقد أصبح الخط النبطي ومنذ القرن الثالث الميلادي الخط المألوف في لغة عرب الشمال، لغة القرآن ولغة العرب اليوم.

الملفت للنظر أن هذه المملكة، اكتسبت حضارة رائعة لا تزال أنقاض البتراء الفخمة تشير إلى عظمتها وتدعو السياح من كل حدب وصوب إلى زيارتها، والتفرج على معالمها. وما «أرم» الموقع النبطي المكتشف حديثاً إلى الشرق من العقبة إلا دليلاً على أن

---

(96) صورة الشرق في عيون الغرب ـ مرجع سابق ـ ص81.

أربابها غرسوا معالم حضارتهم في كل جنب من جنبات مملكتهم. هذا من جهة ومن جهة ثانية نتوقف عند لغتها التي أصبحت لغة الشمال وفيما بعد لغة الجزيرة ككل لتصبح اليوم لغة العرب أجمعين.[97]

أما مملكة تدمر، فإنها نشأت في القرن الثاني قبل الميلاد في وسط بادية الشام في واحة النخيل، وأقامت أمجاداً بارزة بقيت شاهدة على ازدهار هذه المملكة.

وتدل الآثار أنها كانت منطقة تجارية، ذاع صيتها باسم مدينة «بالميرا» تدمر كما قال بعض المستشرقين، وهو اسم جاء من الرومان والإغريق نسبة إلى النخيل.

ويوجد في أطلال هذه المملكة الغابرة معبد بطول 205 أمتار وعرض 215 متراً، ويتوسطه هيكل ومذبح، وزخارف متعددة، ويوجد بآثار تدمر أبراج وباحة داخلية وثلاث بوابات وأسوار وأعمدة باقية شاهدة على حضارة عربية موغلة في القدم.[98]

أما الغساسنة ودولتهم، فإن هذه القبيلة التي جاءت في أواخر القرن الثالث الميلادي على أثر انفجار سد مأرب في اليمن، كانت من بين قبائل عربية كثيرة هاجرت في ذلك الوقت، واستقرت هذه القبيلة في الجنوب الشرقي لدمشق، واحتفظت بلغتها العربية.

ويذكر المستشرق «ارنست كونل» في كتابه «الفن الإسلامي»،

---

(97) الواقعية السياسية ـ مرجع سابق ـ ص116.

(98) تدمر بوابة التاريخ تنهض من سباتها ـ تحقيق عماد سارة ـ مجلة المجلة، لندن، العدد (1120) بتاريخ 29 يوليو 2001م، ص40 ـ 43.

ترجمة الياس أبو شبكة، أن بعض القصور الأموية ومنها قصر المشتى أقيم على أنقاض قصر غساني في شرق الأردن، ويحيط بهذا القصر سور خارجي تدعمه أبراج نصف دائرية، وكذلك وجود قاعات، ومجالس مزودة بغرف جانبية ومداخل متعددة. أما القاعة الرئيسية فأشبه ما يكون نظامها بالنظام «البازيليكي» القائم على ثلاثة أروقة، ويزين الجدران الجانبية واجهة من النقوش الدقيقة حفرت زخارفها في الكسوة الحجرية حفراً غائراً وقد نقلت هذه الواجهة ـ كما قال هذا المستشرق ـ بزخارفها ونقوشها المكتظة إلى متحف الدولة ببرلين.[99]

أما مملكة اللخميون وكندة فإنها قبائل عربية هاجرت من جنوب الجزيرة العربية إلى شمالها في فترة الانحطاط والتقهقر أو الكوارث الطبيعية، وإن هذه الهجرات كانت في حقب متعاقبة وفق الظروف والمتغيرات المناخية أو العسكرية، أو غيرها من العوامل الدافعة للهجرة، ومن المآثر عتد هذه الممالك العربية التي اعتبرها المستشرق «فيليب حتي» معجزة في الفن وآية في الجمال قصر [الخورنق] الذي بناه النعمان بن المنذر. وقد نسب المؤرخون بناءه إلى مهندس بيزنطي يدعى «سينمار» الذي أصبح مثلاً يتداوله الناس «وكان جزاؤه كجزاء سنمار» تعبيراً عن الجحود والتنكر للوفاء، ذلك أن «سنيمار» قتل كي لا يتم على يديه بناء يماثل قصر الخورنق أو يتفوق عليه.[100]

---

(99) التاريخ السياسي والحضاري للدولة العربية ـ د/ السيد عبدالعزيز سالم ـ دار النهضة العربية، بيروت، لم يوجد تاريخ الطبع ـ ص442.

(100) الواقعية السياسية ـ مرجع سابق، ص120 ـ 122.

وتعد منطقة المدائن في الجزء الوسطي من وادي الرافدين في العراق إحدى المناطق التاريخية الهامة، وهو الاسم الذي أطلقه العرب على هذه المنطقة. وقد ذكرت البعثة الألمانية المشرفة على الآثار اكتشاف ثلاث مدن في هذه المنطقة وهي سلوقية، وكوخه، وطيسفون. وقد كشفت البعثات الغربية المتعاقبة على هذه المنطقة، للتنقيب عن آثارها عن وجود تماثيل وقصور وزخارف عديدة لحضارات مختلفة متعاقبة، ومنها الحضارة العربية الإسلامية، حيث عثرت البعثة الألمانية على آثار القصر الأبيض الذي بناه العباسيون، وورد ذكره في الكثير من المصادر العربية التاريخية والجغرافية، وخلده البحتري في شعره. وكان هذا البناء محط الأنظار، إذ زاره الكثير من الأجانب في تاريخ مبكر. وفي عام 1885 م زاره العالم ديولافوا وصوره قبل أن يسقط جناحه الأيمن عام 1887م، بسبب فيضان دجلة. فحتى هذا العام كان البناء مكوناً من قوس شاهق، تحصره من الشمال والجنوب واجهتان، كل واجهة في شكل حقول زخرفية عمارية، قوامها أعمدة وأقواس وكوات.[(101)]

ولا شك أن الجزيرة العربية ظلت مكاناً خصباً لعدد كبير من المستشرقين لدراستها ومعرفة أحوالها السياسية والاقتصادية والاجتماعية وكذلك آثارها التاريخية لعدة قرون ولا تزال، ويعتبر المستشرق الاسكندنافي «جورج فالين» المسلم الملقب بـ «عبدالولي» أحد أكثر المستشرقين الذين اشتهروا في دراسة أحوال

---

(101) المدائن (طيسفون) شيدها الفرثيون في القرن الثاني قبل الميلاد ـ تقرير إيلي سعادة ـ بيروت، جريدة الحياة ـ العدد (14030)، 14 أغسطس 2001م، ص14.

الجزيرة العربية وعاداتها وآثارها، وتجلى هذا في كتابه [صور من شمال الجزيرة العربية في نصف القرن التاسع عشر] الذي ترجمه سمير سليم شلبي، والذي يعتبر من بين أهم الكتب التي وضعها الرحالة المستشرقون عن البلاد العربية التي زاروها بدافع الاستطلاع أو الاستكشاف.

ويرى المستشرق «جورج فالين» أن من شبه الجزيرة ((طلعت أكثر الهجرات خصوبة في تاريخ العالم، ومنها طلعت تلك الدعوة المشرقة المملوءة بالإيمان التي غيرت التاريخ في ثلاث قارات. وقد حركت الحياة المطلقة بين الرمل والفضاء، بين القمر والشمس)). فحيلة هذا الرحالة الفنلندي الشاب، على صعيد إيقاع القوافي الجميلة واللغة العربية الجميلة، مما جعله ينصرف لدراسة هذه الآثار العربية في بيئاتها ويستطلع نباتها ويقف على منابعها ويقرأ شواهد اطلالها. وهذا ما حفّزه للحاق بالقوافل الصعبة على أرض الصخر البركاني الحار والرمل الطيار المتعدد الألوان والظلال. فكان أن أدهشه أيضاً ذلك البدوي الحرّ، الفقير، الشجاع والجميل. إن البداوة على حد تعبير كارستن نايبور، تساوي الحلاية. و«الفقر لدى العربي الجوال/ البدوي، أمر طوعي تماماً، لأنه يفضل الحرية على الثروة، والبساطة على حياة التغيير والضنك مهما كانت عوائدها»[102].

أما بالنسبة لحضارة العرب في إسبانيا وبعض دول المغرب

(102) الرحالة الأوروبيون ومشروعهم في المنطقة العربية ـ قصي الحسين ـ بيروت، جريدة الحياة ـ العدد (14029) ـ تاريخ 13 أغسطس 2001م ـ ص14.

العربي في شمال أفريقيا، فإن جهود الاستشراق في هذا الجانب، ربما يعادل جهود المستشرقين في المشرق العربي سواءً في مجال الدراسات التاريخية أو العلمية أو التنقيب عن الآثار، وغيرها من مآثر العرب وابداعاتهم في شتى المعارف الإنسانية بحكم القرب الجغرافي والتبادل المعرفي، وكتبت مئات الكتب أو أكثر، ناهيك عن البحوث والدراسات وكشف المخطوطات. قد لا نحتاج إلى سرد هذه الجهود، لكونها بارزة في الكتب والدراسات والبحوث، والأكثر انتشاراً بالمقارنة بالمشرق العربي.

لكننا سنشير إلى جهود بعض المستشرقين وأعمالهم عن حضارة العرب في إسبانيا والمغرب العربي إلى جانب المشرق.

ويكفي أن نورد ما قاله المستشرق «استانلي لين بول» في كتابه [قصة مقاومة المسلمين في إسبانيا] أن الأندلس لم تنعم «طوال تاريخها بحكم رحيم عادل، كما نعمت به في أيام الفاتحين العرب» كما أن الشبان المسيحيين ـ كما قال «ول ديورنت» ـ الذين اشتهروا بمواهبهم العقلية لا يعرفون علماً أو أدباً أو لغة غير علوم العرب وآدابهم ولغتهم، فهم يقبلون في نهم على دراسة كتب العرب، ويملأون بها مكتباتهم، وينفقون في سبيل جمعها أموالاً طائلة، وهم يتغنون بمدح علوم العرب. . وكان للعلماء في الأندلس منزلة رفيعة وشهرة واسعة، يعظمهم الناس ويهابونهم، ويستشيرونهم في شؤونهم. . وكان علماء الدين يعدون بالمئات، الخطباء وفقهاء اللغة وأصحاب المعاجم والموسوعات ودواوين الشعر والمؤرخون وكتاب السير، فلم يكن يحصى لهم عدد، وفي مقدمة هؤلاء ابن حزم الظاهري ت 1064م. . إلى آخر ما يقوله ول ديورنت عن

الحضارة في بلاد الأندلس الإسلامية.[103]

ومن المستشرقين الذين اهتموا بالآثار العربية وكشف مكوناتها التاريخية والحضارية في أسبانيا / المستشرق الإسباني «بلباس ليوبولدو توريس» الذي كان مشرفاً على علم الآثار في مجلة الأندلس، ومن بين أبحاثه في هذا الجانب:

العمارة الإسلامية في الغرب، الحمراء منذ قرن، آثار غرناطة، تعليقات على الحمراء: تاريخ مدفئة، ينابيع غرناطة، الحمامات الإسلامية في جبل طارق، الآثار العربية في غرناطة، جولات أثرية خلال اسبانيا الإسلامية، خطوط البيوت العربية في الحمراء، قباب أهم المساجد الإسبانية والتونسية في القرنين التاسع والعاشر الميلادي، الفن الإسلامي الإسباني، التأثير الفني للإسلام في إسبانيا، الأصل العربي لكلمة الفرنسية، تعليقات عن أشبيلية في العصر الإسلامي، الحمامات، البيوت، قصور البحيرة، الفن الأندلسي، معلومات جديدة عن مسجد قرطبة، السكان المسلمون في بلنسية، الفن الموحدي، والفن النصري، والفن المدجن، المهن الإسلامية في إسبانيا وتخطيطها، عمائر موحدية، السيراميك الإسلامي الإسباني، الحضارة المستعربة، التزيينات في قصر الجعفرية، وغيرها الكثير من الأبحاث والدراسات عن الحضارة في إسبانيا.[104]

ومن المستشرقين الذين لهم بصمات واضحة في الكتابة عن

---

(103) الحضارة الإسلامية والحضارة الأوروبية ـ مرجع سابق، ص159.

(104) طبقات المستشرقين ـ مرجع سابق ـ ص102 ـ 105.

تاريخ الحضارة العربية الإسلامية وآثارها، المستشرق «جورج مارسه» الذي عين في 1919 م أستاذاً للآثار الإسلامية في كلية الآداب بالجزائر، ومدير لمعهد الدراسات الشرقية بالجامعة نفسها، ومن آثاره: تاريخ العرب في بلاد البربر، قبة جامع القيروان الكبير وسقوفه بتونس، العمارة الإسلامية في المغرب، تونس، الجزائر، صقلية. التنقيب عن الآثار الإسلامية، فن الجمال الإسلامي، الكتابات العربية على كاتدرائية بوي، الفن الإسلامي في إسبانيا، تلمسان مدينة الفن والتاريخ، جوامع القاهرة، مسألة الصور في الفن الإسلامي، أثر الأندلسيين في بناء مساجد تونس، الخزف في فاس، جامع الوليد في دمشق، أسد من الرخام في قلعة بني حماد، ضريح سيدي عقبة، مداخل الجوامع في الشرق والغرب، العمارة الإسلامية في مصر، فسيفساء الجامع الكبير في قرطبة، ثلاثة أشكال زخرفية في قرطبة، والكثير غيرها من الأبحاث والدراسات.[105]

ومن المستشرقين الذين كشفوا عن العديد من الآثار والنصوص القديمة، وخاصة في جنوب الجزيرة العربية، المستشرق البلجيكي «ريمكانس لوي» الذي اشتهر أكثر بدراسة نقوش الجزيرة العربية قبل الإسلام.

وقد بدأ ريمكانس انتاجه بمقال عن «خاتم فيه نقش عربي جنوبي»، ثم بدأ بعد ذلك في نشر سلسلة من النقوش العربية الجنوبية، وبلغت هذه السلسلة 22 سلسلة جمعت في كتاب بعنوان «تعليقات نقوشية»، ثم صار ريمكانس من المستشرقين المتخصصين

---

(105) المستشرقون ـ نجيب العقيقي ـ مرجع سابق ـ ج1، ص253 ـ 255.

في نقوش جنوبي الجزيرة العربية قبل الإسلام، ولهذا عهد إليه نشر الأقسام النقوشية في تقارير كثيرة من البعثات الأثرية في اليمن وحضرموت وسائر مناطق جنوب الجزيرة العربية. فنشر نصوص حضرمية والعديد من الكتابات عن جنوب الجزيرة العربية.

ومن مؤلفاته أسماء الأعلام السامية الجنوبية، كذلك النقوش الصفوية الموجودة في سوريا، الديانات العربية قبل الإسلام.(106)

أيضاً من النساء المستشرقات في روسيا اللواتي اهتممن بالآثار، المستشرقة الروسية «كراتسكو فسكايا فيرا» زوجة العلامة كرافسكوفسكي ـ وهي خبيرة في الكتابات والنقوش الإسلامية، ومن آثارها في هذا المجال: شواهد قبور عربية في القرون الأولى للهجرة في متحف في روسيا، وبمعاونة زوجها: أقدم وثيقة عربية من أدب القرون الوسطى، كتابات المباني الإسلامية، نقش عربي من فلسطين، نقوش عربية في روسيا من القرن التاسع عشر، أوراق بردى عربية من القرنين الأول والثاني للهجرة، آثار ونقوش من حضرموت.

من دراساتها أيضاً: الكتابات والنقوش، النقود العربية، الكتابات العربية على العمارة الإيرانية، فن العمارة العربية، الكتابات العربية على مباني في روسيا، آثار من الكتابات العربية في آسيا الوسطى، الكتابة العربية، تاريخ العباسيين، مخطوطات فريدة للقرآن من القرن الرابع عشر الميلادي، حول الفن الإسلامي، وغيرها من

(106) طبقات المستشرقين ـ مرجع سابق ـ ص143.
(107) المستشرقون ـ نجيب العقيقي ـ مرجع سابق ـ ص90 ـ 91.

الدراسات والأبحاث والمؤلفات.(107)

ومن المستشرقين البارزين الذي اهتموا بالآثار العربية والإسلامية، وكتب واصفاً رحلته إلى بعض البلاد العربية المستشرق الإنجليزي «ادوارد لين» الذي قال عنه المستشرق «برنارد لويس» بأنه أعظم المستشرقين قاطبة في انجلترا وربما أوروبا «كانت أول سفرة له إلى مصر في عام 1825، فأقام بها ثلاث سنوات (1825 ـ 1828) وفي أثناء إقامته في مصر أبحر في نهر النيل صاعداً حتى الشلال الثاني، مشاهداً وواصفاً للآثار المصرية القديمة، وقد عنى بتعلم اللغة العربية ـ اللغة الفصحى ولغة التخاطب باللهجة المصرية ـ فأتقنها إتقاناً تاماً. واختلط بعامة الأهالي مما جعله أقدر على دراسة أحوالهم وطباعهم وعاداتهم. وقد كان يعرف بين الأهالي باسم «منصور أفندي» وتمخضت هذه السفرة الأولى إلى مصر عن وصف لمصر وشعبها وآثارها مزودة بأكثر من مائة لوحة بحبر السبيا (Sepia). ولكنه لم ينشر هذا الكتاب بسبب غلاء تكاليف رسومه التوضيحية، ثم سافر مرة أخرى إلى مصر بتكليف من جمعية نشر المعرفة المفيدة، من أجل كتابة كتاب أوسع عن الموضوع نفسه وذلك عام 1833م. واستمرت إقامته بها حتى 1835 م خرج بعدها بكتاب (طباع وعادات المصريين الحديثة) وطبع عام 1836م خمس طبعات كما ترجم إلى اللغة الألمانية. وفي الفترة من 1838 إلى 1840 عني لين بنشر ترجمة إنجليزية لكتاب «ألف ليلة وليلة» فجاءت ترجمة دقيقة جداً. وزار لين مصر للمرة الثالثة في 1842م فأقام بها سبع سنوات حتى 1849م وكانت تصحبه في هذه السفرة أسرته. وقد اقترح عليه هذه السفرة الجرنون الدوق الرابع لنور همبرلند، وذلك من أجل جمع مواد

لتصنيف معجم عربي إنجليزي. وقد كرس بقية عمره لتصنيف هذا المعجم فقام وحده بالعمل فيه طوال خمسة وثلاثين عاماً».[108]

ومن المستشرقين الفرنسيين الذي اكتشفوا بعض الكتابات العربية القديمة في اليمن وشمال الجزيرة العربية، المستشرق «هوبير» الذي اكتشف الكتابات السبئية الحميرية في اليمن وشمال الجزيرة العربية، وهي كتابات بأحرف بين العربية والفينيقية تعرف اليوم بأحرف العربية الأصلية (المسند)، وهناك حروف عربية اكتشفها يقال لها اللغة اللحيانية، وجدت في مدائن صالح، كما وجدت على قبر امرئ القيس في النمارة لغة عربية لساناً، إلا أنها منقولة إلى الحروف النبطية في البتراء (وادي موسى) ـ وعمل على حل رموزها، وقد قتل في الصحراء.[109]

ومن المستشرقين الذين عنوا بالتاريخ والآثار العربية المستشرق الفرنسي «كاترمير اتيين» وقد اكتسب «اتيين» شهرته الواسعة عندما انتخب عضواً في أكاديمية «النقوش والآداب الفرنسية» وكذلك كونه أستاذاً في الكوليج دي فرانس، التي ظل فيها حتى آخر عمره.

وكانت باكورة انتاجه في الدراسات الشرقية بحث بعنوان: أبحاث نقدية وتاريخية عن اللغة والأدب في مصر، نشره 1808. وفي ميدان اللغة الفينيقية، يرجع إلى كاترمير الفضل في اكتشاف الشكل الدقيق للإسم الموصول في اللغة الفينيقية. وقد تأيد اكتشافه

---

(108) المستشرقون وتوجيه السياسة التعليمية في العالم العربي ـ مرجع سابق ـ ص134 ـ 135.

(109) المستشرقون ـ نجيب العقيقي ـ مرجع سابق ـ ص388.

هذا عند قراءة النقوش الطويلة التي اكتشفت بعد ذلك في مارسيليا (فرنسا) وصيدا (لبنان).

وفي ميدان الدراسات الآرامية، كان كاترمير أول من أبرز أهمية كتاب «الفلاحة النبطية» وهو كتاب سرياني الأصل لم يبق منه إلا ترجمته العربية التي تمت في القرن الثالث الهجري.[110]

ومن المستشرقين المهتمين بالآثار العربية والإسلامية المستشرق البريطاني «كرزويل، ك.ا» تخرج من مدرسة وستمنستر، ودرس العمارة الإسلامية (1900)، واختير مفتشاً للآثار الإسلامية في سوريا وفلسطين، ومديراً لمعهد الفن والعمارة الإسلامية في الجامعة المصرية، وعضواً في مجلس أمناء متحف الآثار بفلسطين، وأستاذاً لفن العمارة الإسلامية في الجامعة الأمريكية بالقاهرة.

ومن آثاره: الحصون في الإسلام قبل عام 1250م، وموجز تاريخي لإحصاء الآثار الإسلامية في مصر، وبعض مكتشفات حديثة طولونية، والتنقيب عن قلعة القاهرة، و باكورة العمارة الإسلامية، وجامع المنصور الكبير في بغداد، والمصادر الإسلامية للإسطرلاب، ومصادر الزجاج والبللور في الإسلام، وفن العمارة الإسلامي في مصر، وزيارة الأخيضر والكوفة، وفهرست الفن العماري الاسلامي في مصر، وموسوعة الفنون الإسلامية، ومصنفات الفن الإسلامي ما بين النهرين، والجامع الكبير في حماة، وبمعاونة غيره: المصنفات الفنية الإسلامية.[111]

---

(110) طبقات المستشرقين ـ مرجع سابق ـ ص67 ـ 68.

(111) المستشرقون ـ نجيب العقيقي ـ ج2 ـ ص168 ـ 169.

خاتمة

الواقع أن جهود المستشرقين في كشف التاريخ العربي كانت كبيرة وباهرة، في الجوانب الفكرية، والثقافية، والتاريخية، والعلمية وغيرها من الجوانب التي لا نستطيع حصرها في هذا البحث المتواضع الذي نحن بصدده.

واعترف أنني قبل أن أدخل في كتابته كانت لي نظرة قاتمة للإستشراق، بصورة تعميمية في كل جهود المستشرقين، لكن القراءة الشاملة لكل المراجع مجال البحث، جعلتني أغيّر تلك النظرة العامة المسبقة، سيما في الجانب العلمي، والجهود الأخرى المتصلة بأبحاث المستشرقين، في التراث الأدبي والتاريخي والاجتماعي للعرب وحضاراتهم، حيث أفنى الكثير منهم عمره في دراسة جانب من هذه الجوانب بدون انقطاع أو ملل، وعلى أسس علمية ومنهجية غاية في الدقة والتنظيم، وقد قطعوا في ذلك المسافات لتحقيق مخطوط، أو السؤال عن كتاب، أو التنقيب عن آثار.

صحيح أن بعض المستشرقين كانت لهم أغراض غير علمية، وتقف وراءهم مؤسسات تبشيرية أو استعمارية، أو غيرها من

الأغراض، لكن هذه الجهود التي اضطلعت بهذا الموقف انكشفت. ولم تعد جهودها بارزة وملموسة.

لكن الأغراض العلمية والمنصفة للمستشرقين ـ مع وجود بعض السلبيات لأسباب متعددة ـ تعتبر الأكثر إيجابية في هذا المضمار في كشف تاريخنا وابرازه والحفاظ عليه أيضاً.

فلولا جهود هؤلاء، لما استطعنا أن نعرف الكثير من تاريخنا، ومآثر أجدادنا في شتى المعارف الإنسانية، خلال عدة قرون.

ولذلك من الحق أن نذكر أن جهود المستشرقين في كشف التاريخ العربي، تعتبر جهوداً رائدة وعظيمة، تستحق التقدير والاشادة.



الفهرس